

اليهود في القرآن الكريم

سيرتهم وأخلاقهم واحوالهم قبل البعثة . وجنسية اليهود
في الحجاز في زمن النبي ﷺ . واحوالهم وأخلاقهم
ومواقفهم من الدعوة الاسلامية ومصيرهم

بمقام
محمد عزة دروزة

المكتب الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي هذه الطبعة :

كتبنا هذه الرسالة في سنة ١٩٤٨ ، وطبعناها في دمشق في سنة ١٩٤٩ بعنوان : « القرآن واليهود » بقطع صغير ، وراجت ونفدت طبعتها . ووسعناها ، وألحقناها بكتابنا « تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم » في طبعته الجديدة في صيدا سنة ١٩٦٦ ، وجعلنا عنوانه « تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم وأحوال وأخلاق ومواقف اليهود في عصر النبي ﷺ من القرآن الكريم » .

والرسالة مطلوبة بحوثها كثيراً . وقد اقترح غير واحد من إخواننا طبعها منفردة ، فاستجبنا للاقتراح ، وها هي بين يدي القارئ - والحمد لله - آملين أن يكون فيها النفع للمسلمين ، ولقضية فلسطين التي غدت قضية الإسلام والعروبة الكبرى .

وقد كنا ألحقنا بالرسالة التي ألحقناها بتاريخ بني اسرائيل من أسفارهم بعض استدراكات ، فأبقيناها لأنها مفيدة ، وضرورية في بابها . ولقد رأى الناشر أن يطبعها بالتصوير بدلاً من الصف ، فجاءت طبق الأصل الذي ألحق بذلك الكتاب .

والله الموفق إلى ما فيه الخير ، ونسأله العون والسداد ...

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

شغل اليهود وبنو إسرائيل في القرآن حيزاً كبيراً سواء منه المكي أم المدني . حتى لقد ورد ذكرهم تصريحاً أو تلميحاً . ومسبباً او مقتضباً في خمسين سورة . والمتنعم في ما ورد فيهم يجد ان ما ورد فيهم في القرآن المكي هو في الأغلب في صدد قصصهم السابقة للبعثة النبوية من لدن وجودهم في مصر وبعثة موسى عليه السلام وبعدها . ومنه ما فيه إشارة صريحة الى موقف بعضهم من الدعوة النبوية في عهدها المكي كما ان منه ما فيه اشارة مطلقة يدخلون في نطاقها في سياق ذكر الكتابيين ومواقفهم من الدعوة المذكورة .

وما جاء في صدد قصصهم السابقة في القرآن المكي خلا إجمالاً من العنف ولكن بعضه اجتوى تنديداً ببعض ما كان لهم من مواقف ترمد وتعجز وقفوها من موسى عليه السلام وبعدها . وبعض ما كان لهم من مواقف غير مستحبة بعد موسى عليه السلام أيضاً وفي بعض الآيات المكية عنهم اشارة إلى إيمان بعضهم وشهادتهم بصدق الرسالة المحمدية وصدق الوحي القرآني . واستشهد في بعضه بما يدخلهم في نطاقه أي بأهل الكتاب والعلم على صدق هذه الرسالة بأسلوب يشف عن اليقين بحسن الشهادة . ونوه في بعضه بما يدخلهم في نطاقه أي بأهل العلم والكتاب

وأشير في بعضه إلى ما هم عليه من خلاف وما احتواه القرآن من تصويب لما
اختلفوا فيه كما هو في الأمثلة التالية :
اولا : امثلة من الآيات القصصية :

١ - وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم
قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . إن هؤلاء
متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم
على العالمين . وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون
أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم .

سورة الأعراف ١٣٨-١٤١

٢ - واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه
لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في أيديهم ورأوا
أنهم قد ضلوا قالوا لنن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع
موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بش ما خلفتموني من بعدي أعجلتم امر ربكم
وألقي الألواح واخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن ام ان القوم استضعفوني
وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني في القوم الظالمين . قال رب
اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت ارحم الراحمين . ان الذين اتخذوا
العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين .
والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم .
ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم
لربهم يرهبون . واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة
قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا
فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت
خير الغافرين .

سورة الأعراف ١٤٧-١٥٥

٣ - وآتيناهم موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من
دوني وكيلاً . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . وقضينا إلى بني
إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً . فاذا جاء

وعد اولهما بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن احسنتم احسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً .

سورة الإسراء ٢ - ٨ (١)

وثانياً : امثلة في التنويه بهم مع الإشارة الى اختلافاتهم :

١ - وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين . إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم .

سورة النمل ٧٥ - ٧٨

٢ - ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة في ما كانوا فيه يختلفون .

سورة السجدة ٢٣ - ٢٥

٣ - ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

سورة الجاثية ١٥ - ١٦

وثالثاً : امثلة من الآيات المكية التي تشير إلى مواقفهم وتستهزئ بهم وتذكر إيمانهم وتصديقهم :

١ - أفغير الله أبغى حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين

(١) اكتفينا بهذه الامثلة القصيرة . وفي سورة الاعراف ويونس ويوسف وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر سلاسل طويلة في قصص بني اسرائيل جاءت بنفس الأسلوب الخالي من العنف .

آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممتدين.

الأنعام ١١٤

٢ - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون .

الأعراف ١٥٦

٣ - فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممتدين .

يونس ٩٤

٤ - والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ...

الرعد ٣٦

٥ - ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً .

سورة الإسراء ١٠٠

٦ - قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للاذقان يبتدون خشوعاً .

سورة الإسراء ١٠٧-١٠٨

٧ - وإنه لفي زبر الأولين . أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ،

سورة الشعراء ١٩٦-١٩٧

٨ - الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين .

سورة القصص ٥٢-٥٣

٧ - قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين .

سورة الأحقاف ١٠

هذا في حين ان الوارد فيهم في القرآن المدني هو على الأغلب في صدد مواقفهم من الدعوة النبوية مع ربطها بما كان من آباءهم من مواقف حجاج وتمرد وانحراف بقصد تقرير توارث الجبلية الأخلاقية بين الآباء والأبناء المعاصرين وفيه حملات لاذعة وتقريعات عنيفة على تلك المواقف كما هو في الأمثلة التالية :

١ - وإذا قتلتم أنفساً فأذار أنتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون . . أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

سورة البقرة ٧١ - ٧٩

٢ - ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده الرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا

وعصينا واشربوا في قلوبهم المعجل بكفرهم قل بشئ يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين .

سورة البقرة ٨٧ - ٩٣

٣ - ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل ان نطمس وجوهاً فنردها على أديبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً . ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزي من يشاء ولا يظلمون شيئاً . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً .

سورة النساء ٤٤ - ٥٢

٤ - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بشئ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين . قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل ان الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .

سورة الجمعة ٥ - ٨ (١)

ما قلهم الأمثلة :

ويستلهم من الأمثلة الحكيمة انه لم يكن في مكة يهود كثيرون وانما كان أفراد

(١) اكتفينا بهذه الامثلة التي هي قليل من كثير من امثالها في سورة البقرة وآل عمران والمائدة .

مستقرون أو أفراد يترددون عليها أو أفراد من النوعين^(١) . وكانت الدعوة النبوية دعوة إلى توحيد الله الذي يدين به اليهود . وإلى الاعتراف بالكتب المنزلّة والأنبياء السابقين الذين كان جلهم من بني إسرائيل والذين كان اليهود يقدسونهم ولم يخطر ببالهم أن تقوى حق تصبح شاملة . ولم يكن مجال أو إمكان للاصطدام بينهم وبين النبي في مكة تظهر فيه جبلتهم واخلاقهم . فلم يقابلوا الدعوة بالتجهم والمناوأة بل قابلوها بالارتياح والترحيب والتصديق . فكانت الآيات المكية فيهم غير عنيفة ومنها ما كان فيه تنويه وإشادة واستشهاد بهم . أما في المدينة فقد كان أمرهم مختلفاً حيث كانوا كتلة كبيرة وكان لهم مصالح عظيمة . ومركز ديني وسياسي واجتماعي واقتصادي ممتاز . فلما هاجر النبي ﷺ إليها واخذ يقوى استشرعوا الخطر على مصالحهم ومركزهم فكان موقفهم من الدعوة موقف التجهم ثم المناوأة ثم العداء وظهرت خلال ذلك جبلتهم الاخلاقية فاقترضت حكمة التنزيل ان يتبدل الأسلوب القرآني فيهم .

• والكلام في هذا القسم سوف يتناول طرفين . الأول ماتدل عليه الآيات القرآنية من أحوال اليهود وبني اسرائيل واخلاقهم وسيرتهم قبل البعثة النبوية . والثاني ماتدل عليه من ذلك في زمن النبي ﷺ وبخاصة في الحجاز ومواقفهم من الدعوة النبوية والمصير الذي صاروا اليه نتيجة لذلك .

- ٢ -

أولاً : احوال بني اسرائيل واخلاقهم وسيرتهم قبل زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) في سورة يوسف هذه الآيات :

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر

(١) آيات الانعام ١١٤ ويونس ٩٤ والرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧ - ١٠٨ والقصاص ٥٢ - ٥٣ لاتذكر حقاً هوية اهل العلم واهل الكتاب . ولكن اشتغالها على اليهود محتمل مثل احتمال اشتغالها على النصارى . وآيات الشعراء ١٩٦ - ١٩٧ والنمل ٧٦ التي تأمر النبي بسؤال بني اسرائيل تسوغ القول بقوة ان من هؤلاء من كان يقيم في مكة . وآية الاعراف ١٥٧ وآية الأحقاف ١٠ صريحة باسلام بعض بني اسرائيل في مكة . وبالتالي ان منهم من كان في مكة .

رأيتهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيذا
إن الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يحتببك ربك ويعلمك من تأويل
الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبوك من قبل ابراهيم
واسحق ان ربك عليم حكيم . لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين . إذ
قالوا ليوسف واخوه احب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين .
اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً
صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض
السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون .
أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به
وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة
إنا إذن لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه
لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاؤوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا
إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو
كننا صادقين . وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً
فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . ٤ - ١٨

و (إسرائيل) هو اسم ثان ليعقوب أبي يوسف عليها السلام على ما جاء في
سفر التكوين . فتكون هذه الآيات عائدة إلى بني إسرائيل . وفيها كما هو واضح
صورة من حقد معظم أبناء يعقوب على أخيه يوسف وحسدهم له والقدر به
والكذب على أبيهم فيما كان منهم من خطة هذا القدر واحتياهم عليه .
(٢) وفي السورة نفسها هذه الآيات :

١ - اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم
أجمعين . ٩٣

٢ - فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله
آمنين . ٩٩

وفيها خبر نزوح يعقوب وذريته إلى مصر .
(٣) في سورة البقرة هذه الآية :

وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون

والخطاب موجه إلى بني اسرائيل في زمن النبي صلعم في مقام التذكير بما كان من نعم الله على آباؤهم وما كان من تاريخ ومواقف أولئك الآباء . وقد تكرر هذا الأسلوب كثيراً بقصد ربط أخلاق ومواقف اليهود وبني اسرائيل في زمن النبي ﷺ بأخلاق ومواقف آباؤهم للتدليل على وحدة الحيلة واستمرارها . وفي الآية صورة لما كانوا يسامونه من سوء العذاب في مصر من قبل فرعون وقومه .

وقد تكررت حكاية هذه الصورة في آيات عديدة أخرى كما ترى في ما يلي :

١ - وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم .

سورة الأعراف ١٤١

٢ - وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويدبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم .

سورة إبراهيم ٦

٣ - إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين .

سورة القصص ٤

وهذه الصورة كانت قبل بعثة موسى عليه السلام . وفي سورة الأعراف آيات تفيد انها استمرت بعد بعثته أيضاً كما ترى فيما يلي :

١ - وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهلك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

سورة الأعراف ١٢٧

٢ - قالوا اودينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ما جئتنا ..

سورة الأعراف ١٢٩

٣ - فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأه من أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وأنه لمن المسرفين .

سورة يونس ٨٣

(٤) وفي سورة البقرة هذه الآية :

واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون .

٥٠

وفيهما بيان لكيفية خروج بني اسرائيل من مصر . ولقد تكررت حكاية ذلك في آيات اخرى ببعض الزيادات كما ترى فيما يلي :

١ - وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين .

يونس ٩٠

٢ - ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم وادخل فرعون قومه وما هدى . يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى .

طه ٧٧ - ٨١

٣ - وأوحينا الى موسى ان أسر بعبادي انكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . ان هؤلاء لشرذمة قليلون . وانهم لنا لغائظون . وانا لجمع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني اسرائيل . فاتبعوهم مشرقين . فلما ترا آى الجمع انهم قال اصحاب موسى انا لمدركون . قال كلا ان معي ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين .

الشعراء ٥٢ - ٦٦

(٥) - وفي سورة البقرة هذه الآيات :

واذ وعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون .

سورة البقرة ٥١

وفي الآية صورة لمسارعة بني اسرائيل في حياة موسى الى الانحراف عن

توحيد الله الذي وصى الله به موسى وأبلغه موسى إلى قومه بأمر الله وشدد عليهم فيه وعبادتهم العجل في زمن موسى وقبل أن مضى فترة طويلة على التبليغ . وفي أسلوب الآية ربط بين غابريهم وحاضريهم .

وقد تكررت حكاية هذه الصورة كما نرى في الآيات التالية :

١ - ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون .
واذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشرروا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بشئنا يأمركم به إيمانكم أن كنتم مؤمنين .

سورة البقرة ٩٢-٩٣

(٦) وفي سورة البقرة هذه الآية :

واذا قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون :

٥٥

وفي الآية موقف تعجيزي من بني إسرائيل لموسى وبيان لما كان من نكال الله لهم على ذلك . وفي الآية ربط بين مواقف بني إسرائيل من رسالة النبي صلعم ومواقف آبائهم . وفي سورة النساء آية فيها توضيح وتدعيم لذلك وهي (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ١٥٣)

وفي سورة الأعراف آية فيها على ما جاء في كتب التفسير صورة لنكال الله المذكور في الآيتين . وهي : (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ١٥٥)

٢ - واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين .

سورة الأعراف ١٥٨

٣ - قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً افطال عليكم العهد فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة

القوم^(١) فقدفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسي . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى^(٢) .

سورة طه ٨٥-٩١

وفي آيات سورة البقرة ٩٢ - ٩٣ ما يفيد أن عبادة العجل ظلت راسخة في نفوسهم واستمرت في أجيالهم^(٣) . وفيها كذلك صورة أخرى وهي مجاهرتهم لموسى بأنهم سمعوا ولكنهم يعصون !

(٧) وهناك آيات فيها عقوبة ربانية أو إنذار لبني إسرائيل بسبب اتخاذهم العجل كما ترى فيما يلي :

١ - وإذ قال موسى لقومه انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم .

سورة البقرة ٥٢

٢ - إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين .

سورة الأعراف ١٥٢

(٨) وفي سورة البقرة هذه الآية :

(١) في الجملة إشارة إلى ما أخذه من المصريين حين خروجهم من حلى بطريق الاستعارة وهو ما ذكر في سفر الخروج وأوردناه قبل .

(٢) أن سفر الخروج يذكر أن هارون هو الذي صنع العجل والقرآن يكذب ذلك ويقرر أنه السامري وهو الاصدق . ونعتقد أنه كان في يد اليهود قراطيس تذكر ما ذكره القرآن .

(٣) مصداق ذلك ما جاء في الاصحاح (١٢) من سفر الملوك الأول - الثالث من خبر صنع بريعام عجلين من ذهب وقوله لبني إسرائيل هذه آلهتكم التي اخرجتم من مصر وحمله ايام على الذبيح والتمسيد عندها واستجابتهم لذلك .

افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه
من بعدما عقلوه وهم يعلمون .

٧٥

والآية تحاطب النبي والمؤمنين في صدد مواقف اليهود الجحودية لرسالة النبي
ﷺ وفيها صورة لما كان من آباءهم الأقدمين حيث كانوا يحرفون كلام الله وهم
يعلمون إنما يفعلونه تحريف .

(٩) وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون . فويل
للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً
فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا
أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا
تعلمون » .

٧٨-٨٠

والآيات وإن كانت في صدد مواقف اليهود من الرسالة النبوية فإن فيها صور
لما كانوا اعتادوه قبل بعثته وامتد فيهم إلى ما بعد البعثة من تدليس في كتاب الله
وتفاخر بالاختصاص الرباني لهم كذباً .

وقد تكررت حكاية الصورة الثانية عنهم في آية سورة آل عمران هذه :
(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم
يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً
معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون .

٢٣-٢٤

(١٠) - وفي سورة البقرة والأعراف هذه الآيات :

١ - وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا
الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين
ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا
يفسقون .

البقرة ٥٨-٦٠

٢ - وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة
وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا

منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون .

الأعراف ١٦١-١٦٣

وفي الآيات صورة لما كان من مخالفتهم لأوامر الله تعالى، ووصاياه رغم ما كان له عليهم من نعم وأفضال . وبيان بما كان نكال الله للظالمين منهم الذين بدلوا وخالفوا .

(١١) - وفي سورة البقرة هذه الآية :

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله ذلكم بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق بما عصوا وكانوا يعتدون » .

٦١

وفي الآية صورة تعجيزية لله وموسى من بني إسرائيل . وبالإضافة إلى ذلك صورة أخرى لكفرهم المستمر بآيات الله وقتلهم أنبياءه . وقد احتوت الآية تنديداً لهم على تعجيزهم وبياناً بما كان من ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة واستحقاقهم لغضبه بسبب تصرفاتهم المذكورة في الآية .

(١٢) - وهناك آيات أخرى فيها الصورة الإضافية التي في الآية كما ترى

فيما يلي :

١ - ولقد آتينا موسى الكتاب وقضينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس افكلوا مما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون .

البقرة ٨٥

٢ - وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .

البقرة ٨٧

٣ - ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأوا

بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله
ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٢

٤ - الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله
النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم
صادقين .

آل عمران ١٨٣

٥ - فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق .

النساء ١٥٥

٦ - لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول
بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون .

المائدة ٧٠

وفي بعض الآيات ربط بين اخلاق بني اسرائيل ومواقفهم في زمن النبي ﷺ
ومواقف آبائهم الأقدمين من قبل . وروح الآيات تدل على أن كفرهم بآيات الله
وتكذيبهم لأنبيائه وقتلهم إياهم كان يتكرر من آن لآخر بعد موسى عليه
السلام .

(١٣) - وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا
ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم
من الخاسرين . ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة
خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين .

٦٣-٦٦

وفي الآيات اولا صورة لما كان من نقضهم ما كان يأخذه الله عليهم من
مواثيق . وثانياً صورة لنكال الله بفريق منهم خالفوا وصايا الله واعتدوا في يوم
السبت .

والآيات في توجيهها الخطاب لليهود في زمن النبي ﷺ تربط كسابقاتها بين
مواقف هؤلاء من الرسالة النبوية ومواقف آبائهم السابقين .

وهناك آيات عديدة أخرى تكررت فيها حكاية الصوريين . منها ما جاء في آيات سبق إيرادها . ومنها الآيات التالية :

١ - يا أيها الذين اتقوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أديبارها أو نلغنها كما لعنا اصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً .

النساء ٤٧

٢ - ولقد اخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لأن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا تكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم . . .

المائدة ٢- ١٣

٣ - قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً واضل عن سواء السبيل .

المائدة ٦٠

٤ - واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يغدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبثون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . واذا قالت امة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم او معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلمهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا قلنا لهم كونوا قردة خاسئين . واذا تأذن ربك لبيعن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم .

الأعراف ١٦٣- ١٦٧

٥ - فتخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب

ألا يقولوا على الله الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون
أفلا تعقلون .

الأعراف ١٦٩

وفي الآيات تسجيل للعنة الله عليهم وجعله قلوبهم قاسية بسبب نقضهم
موثيقه . وتذكير بنكال الله في الذين اعتدوا في السبت وفي آيات الأعراف
صورة لاحتياهم في يوم السبت وتوضيح لمدى ما جاء في الآيات الأخرى من
حكاية اعتدائهم فيه ونعتهم بأصحاب السبت . وفيها صورة أخرى لما كان من
استمرارهم في نقض ميثاق الله واستغلالهم كتابه في اعراض الدنيا وما كان
من تشتيت الله لهم في الأرض وايدانه بأن يرسل عليهم الى يوم القيامة من
يسومهم سوء العذاب نكالا لهم على ذلك مما يرى الناس منذ مئات السنين مصداقه
في كل مكان .

(١٤) - وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزواً
قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك ببين لنا ما هي قال انه
يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع
لنا ربك ببين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين .
قالوا ادع لنا ربك ببين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون .
قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرت مسلة لا شية فيها
قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . واذ قتلتم نفساً فادارأتم
فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى
ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او أشد
قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء
وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » .

٦٧ - ٧٤

وفي الآيات صورة للججاج اليهود وتمجيزهم لموسى عليه السلام وما كان من
قسوة قلوبهم التي وصفت في الآيات اقوى وصفاً نتيجة لذلك . وقد ربطت
الآيات بين مواقف اليهود تجاه النبي ﷺ ومواقف آبائهم الأولين لابرار استمرار

تلك الاخلاق والجملة فيهم .

(١٥) - وفي سورة البقرة هذه الآية :

« كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ... »
٢١٣

وبنو اسرائيل يدخلون في نطاق جملة (الذين اوتوه) وتكون في الآية اشارة الى ما كان من اختلافهم في امر ما انزل الله اليهم من كتب اختلافادافعه قصد البغي والانحراف .

وقد حكى آيات كثيرة هذه الصورة عن اهل الكتاب الذين يدخل فيهم بنو اسرائيل . ومنها ما فيه صراحة انهم المقصودون من ذلك كما ترى في الآيات التالية :

١ - تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ومنهم من كلمه الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ماقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر... »

٢٥٣ البقرة

٢ - ان الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم .

١٩ آل عمران

٣ - ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم .

١٠٥ آل عمران

٤ - ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم .

٩٣ يونس

٥ - ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب .
١١٠ هود

٦ - انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

١٣٤ النحل

٧ - ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون .

٧٦ النمل

٨ - وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لفضي بينهم وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب .

١٤ الشورى

٩ - فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم .

٦٥ الزخرف

١٠ - وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .

١٧ الجاثية

(٦) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

وَأَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِنَا مَلَكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نَقَاتِلَ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَإِبْنَانِنَا . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ . قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ...

٢٤٦-٢٤٩

وفي الآيات صورة لما كان من لجاج معظم بني إسرائيل وجبنهم وعلهم وعصيانهم ومناقضتهم لأقوالهم بأفعالهم ومواقفهم .
(١٧) وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون . ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا مكر الله والله خير الماكرين .

٤٩ - ٥٤

وفي الآيات صورة لموقف الكفر والمكر الذي وقفه معظم بني إسرائيل من عيسى عليه السلام ورسالته . وهناك آيات أخرى تكررت فيها حكاية هذه المواقف وفيها صور أخرى كما هو في الآيات التالية .

١ - وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً .

سورة النساء ١٥٦ - ١٦١

وفي الآيات تسجيل لما كان بنو إسرائيل يقذفون به مريم من بهتان ويدعون متفاخرين بأنهم قتلوا المسيح عيسى رسول الله . بالإضافة إلى ما كان عقوبة الله لهم بما اقترفوه من ظلم وصد عن سبيل الله وتعاطيهم الربا الذي نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . والآيات تلهم انه تسجل اخلاقاً وتصرفات متواترة

مشهورة عنهم في مختلف اجيالهم .

٢ - إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهيلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وقبرىء الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين.

المائدة ١١٠

وفي الآية صورة مشابهة للصورة التي تسجلها آيات آل عمران مع زيادة قول بني اسرائيل عن ما جاءهم به عيسى عليه السلام من البينات إن هو الا سحر مبين .

٣ - فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا اخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً . فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بالذي لم يجعلني جباراً شقياً . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وأن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم .

سورة مريم ٢٧-٣٧

وفي الآيات صورة لموقف بني اسرائيل من مريم وولادة عيسى الإعجازية عليها السلام .

والآيات مسبوقة بفصل فيه حكاية لدعاء زكريا عليه السلام إلى الله بأن يهبه وارثاً وبشارة الله له باستجابة دعائه وهبته له يحيى واستغرابه وتنبيهه إلى قدرة الله على ذلك . ثم بشارة الله لمريم بواسطة الروح بهبته لها غلاماً واستغرابها ذلك وتنبيهها إلى قدرة الله عليه . وهذا يتطابق تماماً مع ما جاء في الإصحاح الأول من انجيل لوقا واوردناه قبل في سياق سيرة المسيح عليه السلام .

٤ - ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم .

سورة الزخرف ٦٤ - ٦٥

٥ - وإذا قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .

سورة الصف ٦

(١٨) وفي سورة آل عمران هذه الآية :

«ومن اهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بيدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (١) .

٧٥

واجمع المفسرون على ان الفريق الأول النصارى والثاني اليهود .

وفي الآية صورة لما درجوا عليه من استحلال كل شيء يأخذونه من الغير أو يفعلونه معهم واعتقادهم بأن الله لا يؤاخذهم عليه لأنهم شعبه كذباً وافتراء عليه .

(١٩) وفي سورة آل عمران أيضاً هذه الآية :

« وإذا اخذنا الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه

فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون » ١٨٧

والآية من سلسلة في حق اليهود . وعلى كل حال فانهم داخلون في نطاق جملة

(أوتوا الكتاب) . وفيها صورة لمخالفتهم ميثاق الله الذي اخذه عليهم ببيان

ما في كتبه وعدم كتمانهم . وإيماهم هذا وإساءة استغلال كتاب الله في منافعهم الدنيوية .

(٢٠) وفي سورة المائدة الآيات التالية :

(١) كلمة الاميين في القرآن عنت العرب وعنت غير اهل الكتاب .

« وإذ قال موسى لقومه يا قومي اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكاً وآثاكم ما لم يؤت احداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب اني لا املك الا نفسي واخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتوبون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » .

٢٦ - ١٩

وفي الآيات صورة لما كان من جبنهم وهلمهم وعدم اعتمادهم على الله وعدم قبولهم السبر في تنفيذ وعده . وقد سجلت عليهم الفسق بلسان الله عز وجل وبلسان موسى عليه السلام .

(٢١) وفي السورة نفسها هذه الآيات التي جاءت بعد قصة ابني آدم وقتل احدهما للآخر بغيماً :

« من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون » .

٣٢

وفي الآية صورة لما كان انحراف كثير منهم عما كتبه الله عليهم وفسادهم واسرافهم في الأرض . وروح الآيات وفحواها يلهمان ان ذلك ديدنهم على مختلف اجيالهم .

(٢٢) وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

٧٩-٧٧

وفي الآيات صورة لما كان من استغراق كثير منهم في الآثام ومنكر الأفعال

وعدم مبالاهم وتناهيههم عن ذلك وتسجيل لغنتهم على ذلك على لسان داود
وعيسى عليها السلام .

(٢٣) وفي سورة الأعراف هذه الآيات .

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأقوا على قوم يعكفون على اصنام لهم
قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » .

١٣٨

وفي الآية صورة لما كان من رسوخ الوثنية فيهم ومسارعتهم الى الطلب من
موسى ان يجعل لهم اصناماً يعبدونها حال ما رأوا أناساً يعبدون اصناماً . وهذه
الصورة غير الصورة التي احتوتها آيات اخرى باتخاذهم العجل كما يبدو من
مقارنة الظرفين وان كانت اثرأ لنفس الحافز الراسخ . ولقد ظل ذلك الحافز
راسخاً فيهم في مختلف أدوار تاريخهم في ارض كنعان على ما جاء شرحه في
القسم الاول مما احتوته اسفارهم اخباره المتوالية .

(٢٤) في سورة الإسراء هذه الآيات :

« وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن
علواً كبيراً . فاذا جاء وعد اولها بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس شديد
فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم فأمددناكم
بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . ان احسنتم احسنتم لأنفسكم وان أسأتهم
فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول
مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً » .

٧-٤

وفي الآيات صورة من تاريخ بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام . وما
كان من تشكيل الله فيهم بسبب فسادهم واستعلائهم الباغى .

ولما كان تاريخ بني اسرائيل قد تقلب كثيراً وتعرضوا فيه لغزوات وضربات
عديدة فالمتبادر ان القصد بالمرتين هو الإشارة الى اشد ما كان من ذلك . وقد
تلهم روح الآيات انها بسبيل الإشارة الى الغزوة الاشورية التي هدمت احدى
مملكيتهم اسرائيل في القرن الثامن ثم الغزوة الكلدانية البابلية التي هدمت
مملكتهما الثانية يهوذا ودمرت معبدهم وعاصمتهم اورشليم .

(٢٥) في سورة الأحزاب هذه الآية :

« يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان

وفي الآية إشارة إلى ما كان من أذية بني إسرائيل لموسى عليه السلام . وقد روى المفسرون أحاديث فيها توضيح لهذه الأذية . أوثقها ما رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة وجاء فيه ان موسى عليه السلام كان يببالغ في ستر جسده حياء فقالوا إنه لا يفعل ذلك إلا لأن في جسده عيب أو آفة أو برص أو أذرة . وان الله أتاح لهم في فرصة أن يروا جسده فاذا هو سليم وبذلك برأه الله (١) .

(٢٦) في سورة الشورى هذه الآية :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وان الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . »

١٤

وبنو إسرائيل يدخلون في نطاق (الذين أوتوا الكتاب) وفي الآية والحالة هذه إشارة إلى تفرقهم أحزاباً بدون سند من حق وقصد إلى حق ولم يكن ذلك منهم إلا على سبيل البغي والانحراف عن الحق . وانهم والحالة هذه في شك مريب ازاء كتب الله .

ومن الجدير بالتنبيه أن جل بل كل هذه الصور المنطوية في الآيات القرآنية قد وردت في اسفار العهد القديم المتداولة على ما مر شرحه في سياق محتوى هذه الأسفار . وإن كان شيء من المبينة فالذي نعتقده أن في الأسفار المفقودة ما هو المتطابق مع محتوى الآيات .

(١) التاج الجامع لأصول احاديث الرسول ج٤ ص ١٨٩ - ١٩٠ وقد فسر الشراح (الأذرة) بضخامة الحصيتين .

وثانياً : أحوال وأخلاق اليهود في الحجاز ومواقفهم من الرسالة المحمدية والمصير الذي صاروا اليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .
وسيكون الكلام على هذا في فصول كما يلي :

جنسية يهود الحجاز

إن الآيات القرآنية سواء أفي توجيه الخطاب إلى يهود الحجاز في معرض ذكرهم في المواقف المتنوعة أم في صدد بيان أحوالهم وأخلاقهم قد نسبتهم إلى إسرائيل دون استثناء . وربطت بينهم وبين بني إسرائيل الأولين من لدن موسى بل من لدن يعقوب الذي كان (إسرائيل) اسمه الثاني على ما ذكره سفر التكوين وأوردناه في القسم الأول . كما ترى من الأمثلة التالية :

١ - يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون .

سورة البقرة ٤٠

٢ - وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون .

البقرة ٨٣

٣ - سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب .

البقرة ٢١١

٤ - كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من

قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين .

آل عمران ٩٣

٥ - ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتوهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين .

المائدة ٢ - ١٣ (١)

٦ - لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون .

المائدة ٧٨-٧٩

يضاف إلى هذا أولاً : أنهم كانوا يعيشون في أحياء وقرى خاصة بهم في المدينة وما حولها كجاليات طارئة وكعادة بني إسرائيل منذ تشردهم في مختلف الأديار والبلاد .

وثانياً : ان اللغة العبرانية كانت لغة كتبهم وطقوسهم ومدارسهم وتخطابهم فيما بينهم . ويستلهم هذا من بعض الآيات القرآنية كما ترى في آيات سورة الأنعام هذه :

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون : أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا

(١) الآيات تربط بين اليهود في زمن النبي واجدادهم بوصفهم من بني إسرائيل .

١٥٥ - ١٥٧ (١)

وآية سورة فصلت هذه : (ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) .

٤٤ (٢)

وهناك بعض الآثار في ذلك أيضاً منها حديث رواه الترمذي عن زيد بن ثابت قال : (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود قال اني والله اني ما آمن يهود على كتاب قال فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له . فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت اليهم وإذا كتبوا اليه قرأت له كتابهم) (٣) .
ومنها ما رواه ابن سعد في سياق وقائع التنكيل باليهود حيث روي ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عبد الله بن عتيك مع ثلاثة آخرين من أصحابه إلى قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق النضري زعيم اليهود في خيبر وأنهم قدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية فكانت معرفته باليهودية سبباً لاطمئنان زوجة الزعيم اليهودي وفتحها الباب لأصحاب رسول الله حيث تمكنوا من إنجاز المهمة بسهولة (٤) . والخبر يفيد معرفة أمرين في صدد ما نحن فيه الأول أن اليهود في خيبر كانوا يتخاطبون باليهودية . والثاني أن لغة بني النضير الذين منهم الزعيم والذين كانوا يقطنون يثرب هي أيضاً يهودية أي عبرانية .

(١) المخاطب في الآيات العرب بسبيل التنبيه الى ان الله قد انزل الكتاب على النبي لثلاث يقولوا ان الكتب الإلهية السابقة انزلت بغير لغتهم وانه لو انزل عليهم كتاب بلغتهم لكانوا اهدى من الأمم التي جاءتهم تلك الكتب . وهي بهذا الشرح تنطوي على دلالة على ان الكتب التي كان يتدارها اليهود هي غير عربية اللغة .

(٢) هذه الآية بسبيل الرد على العرب الذين قالوا بسبيل التعجيز ان الكتب السماوية الاولى غير عربية اللغة فكيف يكون القرآن من عند الله وهو عربي اللغة .

(٣) التاج الجامع لأصول احاديث الرسول ج ٥ ص ٢٣٠ وكلمة (كتاب) في الحديث تعني كتابتهم ولغتهم على ما هو مستفاد من مجموع الحديث .

(٤) ج ٣ ص ١٣٤

وثالثاً : إن النبي صلى الله عليه وسلم أجلى معظم اليهود عن المدينة والقرى الأخرى إلى بلاد الشام فلم يكن لجلائهم أي أثر . حيث يدل كل هذا دلالة حاسمة على ان الكتلة اليهودية في الحجاز كانت من بني إسرائيل وكانت طارئة على الحجاز . وعلى ان ما ذكرته بعض الروايات من أن بني النضير وبني قريظة كانوا قبائل عربية متهودة لا تقوم على أساس صحيح ^(١) . وكل ما يمكن أن يكون أن بعض العرب في يثرب وحولها قد تهودوا وتصاهروا مع بني إسرائيل بل ونحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إنه لم يكن في سائر أنحاء جزيرة العرب وخاصة في اليمن كتل عربية متهودة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

وإذا كانت الروايات والآثار تذكر ان بعض أحبار يهود يثرب استطاعوا حمل بعض ملوك حمير على التهود ونشر اليهودية بطريقهم بين العرب في اليمن في عهد الدولة الحميرية ^(٢) . فإن كتب السيرة القديمة لم تتضمن أية إشارة إلى وجود يهود في اليمن في زمن النبي صلعم كما أنها لم تذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلا يهوداً عن اليمن حينما أجلى النصارى عن نجران اليمن واليهود عن خيبر . تنفيذاً لوصية النبي صلعم بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان ^(٣) . بل ان هناك حديثاً مروياً عن النبي ﷺ جاء فيه (أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب) ^(٤) . حيث يفيد هذا انه لم يكن في اليمن عند موته يهود . ولقد جر تهود بعض ملوك حمير إلى اضطهاد نصارى اليمن وحملهم على التهود وأدى هذا إلى انتصار الحبشة النصرانية لهم وغزوها اليمن في أوائل القرن السادس الميلادي ونسفها الدولة الحميرية وبسط سيطرتها عليها ^(٥) فمن المحتمل جداً أن يكون المتهودون في اليمن قد رجعوا عن يهوديتهم طوعاً او كرهاً في ظلها حتى

(١) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ٦ ص ١٥٢ .

(٢) انظر الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي ص ٧٦ وبعدها و ٩٠ وبعدها .

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٥ وفتوح البلدان للبلاذري ص ٧٣ وتاريخ الطبري ج ٢ ص

٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٤) مجمع الزوائد ج ٥ ص ٣٢٥ وكتاب الأموال للإمام ابي عبيد ص ٩٩

(٥) انظر أيضاً الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي ص ٧٦ ومابعدها .

لم يكذب ببقى منهم احد قبيل البعثة النبوية حيث يفسر هذا عدم ورود امر
ينوي باجلاء اليهود عن اليمن واقتصار الأمر على إجلاء نصارى نجران ويهود
الحجاز .

ومن المعلوم انه كان وما يزال في اليمن جماعات من اليهود . والذي نرجحه
بل نعتقد به بناء على ما تقدم انهم جالية اسرائيلية مستعربة وفدت على اليمن من
الأندلس بعد سقوطها حيث كان فيها جماعات كثيرة من بني إسرائيل فخرج
منها جماعات وتشتت في مختلف أنحاء البلاد العربية والاسلامية في آسية وافريقية .
ولقد ذكرت روايات السيرة ^(١) انه كان في البحرين جماعة من اليهود إبان
البعثة النبوية . والذي نعتقد به انهم بدورهم جالية اسرائيلية من جملة الجوالي
الإسرائيلية التي تشتتت في أنحاء الأرض نتيجة للضربات القاصمة التي كانت تنزل
عليهم في مختلف الظروف على ما شرحناه في القسم الأول من هذا الكتاب .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٧ - ٢٨ .

احوال اليهود في الحجاز

— ٤ —

وفي القرآن آيات عديدة تساعد على رسم صورة كاملة لما كانت عليه احوال اليهود في الحجاز . ونقدم أولا الآيات ثم نعقب عليها بيان المستفاد منها عن احوالهم . وقد يكون بعض الآيات قد أورد قبل . غير اننا سنورده مرة اخرى حتى لا نتعب القارئ بالبحث عنه :

١ - يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

البقرة ٤٠ - ٤٤

٢ - أفنطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون .

البقرة ٧٥ - ٨٠

٣ - وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل يعمل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون .

البقرة ٨٤ - ٨٥

٤ - وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بثسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللکافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون .

البقرة ٨٨ - ٩٢

٥ - قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين .

البقرة ٩٤

٦ - واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولوا انما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون .

البقرة ١٠٣

٧ - وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل

هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

البقرة ١١١ (١)

٨ - وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

البقرة ١٣٥ (٢)

٩ - تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورافع بعضهم درجات وآتينا عيسى البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد .

البقرة ٢٥٣

١٠ - وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون .

آل عمران ٧٨ - ٧٩

١١ - يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة الله إخواناً وكنتم

(١) و (٢) ميثاق الايتين هو في اليهود فقط ونرجع أن تعبير النصارى جاء استطرادياً أو من قبيل لسان الحال . ولعل من القرائن الحاسمة على ذلك جملة (أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى) في آية البقرة (١٤٠) مع ان السلسلة في حدد موقف اليهود فقط ولا يحتمل أن يكون اليهود قالوا إن هؤلاء الانبياء نصارى أو ان المهدي في النصرانية واليهودية على السواء أو ان النصارى يدخلون الجنة أيضاً مع اليهود سواء بمسواء .

على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

آل عمران ١٠٢-١٠٣ (١)

١٢ - لن يضروكم إلا أذى وإن قاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا . إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٢

١٣ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤم وإن تصبكم مصيبة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط .

آل عمران ١١٨ - ١٢٠ (٢)

١٤ - ولا يحسن الذين ييخلون بآثام الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوفون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما يعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب

(١) في الآيات إشارة الى ما كان بين الأوس والخزرج من عداوة وحروب قبل الاسلام وإلى ما كان من دسائس اليهود بينهم ليعودوا إلى عداوتهم وحروبهم التي وقفت منذ أسلموا وصار بينهم اخاء ديني .

(٢) الروايات مجمعة على انها تعني اليهود ومضمونها يفيد ذلك .

ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي فلتم فلم تقتلتموهم إن كنتم صادقين . فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير .

آل عمران ١٨٠ - ١٨٤

١٥ - ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعذاركم وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعضينا وسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمعوا وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنزدها على أديبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً . ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً .

النساء ٤٤ - ٥٢

١٦ - ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً .

النساء ٦٠

١٧ - الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم

العزة فإن العزة لله جميعاً .

النساء ١٣٩ (١)

١٨ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً .

النساء ١٤٤ (٢)

١٩ - إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً .

النساء ١٥٠ (٣)

٢٠ - فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين عذاباً أليماً .

النساء ١٦٠ - ١٦١

٢١ - فما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين .

المائدة ١٣

٢٢ - وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير .

المائدة ١٨

٢٣ - إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء .

المائدة ٤٤

(١-٢-٣) الروايات مجمعة على أنها في صدد اليهود وتحالف المنافقين معهم امتداداً مخالفتهم لهم في السابق .

٢٤ - فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم . انهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين .

المائدة ٥١ - ٥٢

٢٥ - وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ليس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون . وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كل ما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين .

المائدة ٦٢ - ٦٤

٢٦ - وإذ تأذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لفغور رحيم . وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون .

الأعراف ١٦٧ - ١٦٩

٢٧ - ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون .

الأنفال ٥٥ - ٥٦ (١)

٢٨ - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما

(١) الجمهور على انها تعني اليهود ومضمونها قد يفيد ذلك .

أمرُوا الا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .

التوبة ٣٢ - ٣٤

٢٩ - فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من المعترين .

يونس ٩٤

٣٠ - أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل .

الشعراء ١٩٧

٣١ - ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين . ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم .

النمل ٧٦ - ٧٨

٣٢ - وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً .

الاحزاب ٢٦ - ٢٧

٣٣ - هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار .

الحشر ٢

٣٤ - ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

الحشر ٧

٣٥ - لأنتم أشد رهبة في قلوبهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

الحشر ١٤

٣٦ - قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين .

الجمعة ٦

فهذه السلسلة من الآيات تلهم على ضوء روايات عديدة وردت في الكتب العربية القديمة ^(١) ان جماعات من بني اسرائيل قد جاؤوا الى الأنحاء الحجازية من امد بعيد واستقر اكثرهم في يثرب وقرى اخرى في ناحيتها على طريق الشام وكان بعض أفرادهم يترددون على مكة أو يقيمون فيها . وقد تعلموا اللغة العربية واشتركوا في حياة العرب وتقاليدهم وصار لهم فيهم انصار وحلفاء ومحبون ومركز قوي . وانهم نشروا عن انفسهم علماً واسعاً في الأديان والشرائع واخبار الأمم وسنن الكون والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب المنسوب الى الله ورسله الذي يتداولونه . وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون عليهم بل ويدلسون في كل ذلك عليهم . ويظهرون غروراً وخيلاء وتبجحاً بما عندهم من العلم وما يصدر عنهم من معارف ولو كان فيها زيف وتدليس . ويزعمون انهم اولياء الله وأحباؤه وأصحاب الخطوة لديه . وأن ذلك قد أثر على العرب تأثيراً غير يسير فكان لهم بسببه مكانة ممتازة صاروا بها مرجعاً لهم في كثير من مشاكلهم ومسائلهم ومعارفهم بل وصاروا لهم مرشدين وقضاة . وانه كان لهم كيان طائفي ديني ولهم معابدهم ومدارسهم وأجبارهم وربانيوهم وكان هؤلاء تأثير كبير على أبناء الطائفة كما كانوا قضاتهم . وكان منهم من يتخذ منصبه ونفوذه وسيلة الى ابتزاز المال بالباطل . وكانوا يتعاطون السحر والشعوذة أيضاً . وكانوا جاليات كثيرة العدد منهم بل اكثرهم استقروا في احياء خاصة لهم في يثرب المدينة وحصونها بالقلع والحصون والأسوار . ومنهم

(١) لخصنا ماورد في مصادرهما في الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي ص ١٤٥ - ١٥٢

من سكن في مزارع وقرى خارج المدينة منها القريب ومنها البعيد . وحصنوها
كذلك بالقلاع والحصون والأسوار . وكانوا يكتنون مختلف انواع السلاح وبكمية
كبيرة من سيوف ورماح وقسي ونبال وحراپ ودروع . ولم يكونوا متحدین
في كيان سیاسي وعسكري وديني . بل كانوا فرقا واحزابا وكانوا على خلاف
ونزاع وعداء . وكان في المدينة قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج وكان
بينهما بدورهما نزاع وعداء وحروب . فكان فريق من اليهود متحالفاً مع احدهما
وفريق آخر مع الأخرى وكان كل فريق يقاتل مع حليفه الفريق الآخر مع
حليفه من اليهود . ولقد كان طابع الذلة والمسكنة والجن والغربة والفرع
يطبعهم جميعاً فكانت محالفاتهم مع العرب بالإضافة الى حصونهم وقلاعهم
وسلاحهم وسيلتهم الى الاستمساك والبقاء . وكانوا لأجل ذلك يحرصون على أن
يبقى النزاع والعداة قائماً بين القبيلتين العربيتين . وكانت لهم حقول ومزارع
وبساتين واموال واملاك . وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة والربا فكان
كثير منهم نتيجة لذلك اغنياء واصحاب ثروات وكان ذلك يساعدهم على النفوذ
والتأثير بالعرب أيضاً .

اخلاق اليهود في الحجاز

- ٥ -

وفي القرآن آيات كثيرة تساعد على رسم صورة واقية لأخلاقهم أيضاً . ولقد ربطت هذه الآيات على الأكثر بين أخلاق اليهود المعاصرين للنبي ﷺ في الحجاز وبين اخلاق آبائهم الأولين بحيث يصح أن يقال إن هذه الأخلاق ليست خاصة بمن هم في الحجاز منهم حين نزول الآيات وإنما هي جيلة راسخة متوارثة من الآباء والأجداد . وبالتالي إنها صورة لأخلاق اليهود عامة في الحجاز وغير الحجاز غابرين ومعاصرين . وهذا مؤيد بما في الأسفار من لدن موسى من نعوت وحملات وتقريعات على ما كانوا يرتكبون فيه دائماً من انحرافات دينية واخلاقية واجتماعية على ما مر شرحه في القسم الأول .

ولقد وصفتم الآيات بالكفر والجحود واللجاج والأنانية والزهو والتبجح والترف عن الغير واعتبارهم أنفسهم فوق الناس وعدم الإندماج الصادق مع أحد . وعدم الولاء الصادق لأحد . والتضليل والتدليس والدس والشره الشديد إلى ما في أيدي الغير والحسد الشديد لهم ولو تمتعوا أنفسهم بأوفر النعم . ومحاولة الاستيلاء على الكل والتأثير في الكل واللعب في وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح واستحلالهم لما في أيدي الغير وعدم اعتبارهم أنفسهم مسئولين عن شيء أمامه . وضمنهم بأي شيء للغير إذا ملكوا وقدروا . وعدم مبادلتهم الغير في ود وبر ومحبة . واندماجهم في موقف مهما دنؤ وفجر وكان فيه كفر وفسق وخيانة وغدر في سبيل النكاية بمن يناوئونهم . ونقضهم لمبادئ دينهم في سبيل مكابדתه .

وعدم تقديم بأي عهد و وعد وميثاق وحق وعدل وواجب وأمانة . وتشجيعهم لكل حاقد و فاسد و منافق و دساس و متآمر في سبيل التهديم . وشفاء لداء الحسد والحقد والحداق المتأصل فيهم .

والآيات وإن كانت في صدد وصف أخلاقهم في الحجاز فإن روحها بل وفحواها يلهان أنها أخلاق اليهود عامة .

وإنه لمن العجيب المثير ان المرء ليرام في أخلاقهم اليوم على اختلاف منازلهم وبيئاتهم صورة طبق الأصل لما وصفهم به القرآن من صفات وأخلاق امتداداً لما حكته أسفارهم عنهم منذ القديم . لم تزد في الأيام فيها إلا رسوخاً مما هو مصداق لما قرره القرآن من الجبلۃ الراسخة المتوارثة من الآباء للأبناء ومما لمسها فيهم البشر جميعاً في كل زمن ومكان حتى صاروا في ذلك كله العلم المفرد بين البشر أو القبيل البشري الشاذ المجمع على شذوذه في كل ذلك عن سائر البشر والذي غدا به حديث كل مجتمع في كل زمن ومكان فلا ترام إلا والعيون مزودة منهم . والسخط فائر عليهم . والنفوس متبرمة بهم . والناس مستثقلون ظلهم . والحذر رائد منهم . وشرم ومكرهم بالغاً الأثر فيهم والجميع راغب في التخلص منهم بأية وسيلة . وكفى باجماع البشر على اختلاف الزمان والمكان والجنس واللون والنحلة قوة ودليلاً على تأصل تلك الجبلۃ التي يصدرون عنها في أعمالهم وتصرفاتهم وعلى أن البشر ليسوا هم المتحاملون عليهم نتيجة للعقد النفسية التي تعقدت بها نفوسهم ولازماتهم طيلة أدوار تاريخهم وما تزال . حيث يبدو من هذا هول البلاء الذي رمى به طواغيت الاستعمار العرب وبلادهم ليخلصوا منه من جهة ويجعلوه للعرب هما دائماً مقبلاً معقداً يقضون به مآربهم الخبيثة من جهة أخرى . وحيث يبدو كذلك شدة الحافز الذي يجب أن يحفز العرب على التضامن والمجاهدة في تطهير بلادهم من هذا البلاء العظيم .

واليك الآن نصوص الآيات التي تسجل عليهم تلك الأخلاق بأساليب متنوعة^(١)

(١) في أجزاء سيرة ابن هشام وفي كتب التفسير في مناسبات نزول كثير من الآيات التي ترد في هذا الفصل والفصول التالية وفيها ما تلهمه الآيات من مواقف التأمر والانحراف وسوء الأدب والأخلاق والكفر والهرج والكيد والفساد . ولم نر ضرورة ليراد الروايات لأن في الروايات صراحة بما كان يبدو من اليهود من مثل تلك المواقف .

وقد يكون بعض الآيات سابقة الإيراد . ومع ذلك فقد رأينا من المفيد إعادتها في هذا السياق :

١ - يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلنا مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

البقرة ٤٠-٤٤

والآيات تسجل عليهم خلق كتمان الحق وإلباس الحق بالباطل والمكابرة بالحق وتفضيل منافع الدنيا عليه ووعظ الناس بالبر مع بعدهم عنه .

٢ - ومن هذا الباب آيات سورة آل عمران هذه :

يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم به عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ..

٧٠-٧٣ (١)

وفي هذه الآيات زيادة عما احتوته آيات البقرة حيث تسجل عليهم خلق الخديعة والتضليل وتواصيهم بينهم بأن لا يتضامنوا ولا يتواثقوا ولا يتبادلوا المعرفة والمودة مع غيرهم ولا يطمئنوا اليه وأن يكونوا مع المسلمين في موقف النفاق والخداع لا غير . وأن لا يتساهلوا فيما يمكن أن يفيد المسلمين من هدى ومعرفة وحجة .

(١) ان الفقرتين (قل ان الهدى هدى الله) و (وقل إن الفضل بيد الله) هما بسبيل الرد الرباني على ما يقولونه ويتواصون به وقد حكى ابن هشام ان بعض أحبار اليهود وصوا بأن يظهر بعضهم الايمان بالنبي خذرة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم . (ج ٢ ص ١٨٠) .

٣ - أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذي آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون .

البقرة ٧٥-٨٠

والآيات تسجل عليهم ما سجلته آيات آل عمران السابقة من خلق النفاق والخديعة وعدم التساهل فيما يفيد المسلمين من معارف وأفكار وحجة دينية . وتسجل عليهم بالإضافة إلى ذلك خلق الكذب على الله في مسائل الدين بسبيل التدليس على الناس وتضليلهم وابتزازهم والنصب عليهم والزهو بأن لهم الحظوة عند الله لذات المقصد أيضاً .

٤ - وهذه التسجيلات تكررت في آيات أخرى في سورة آل عمران منها هذه الآيات :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون .

٢٣-٢٤

وفيها زيادة هي رفضهم التحاكم إلى كتاب الله حينما يدعون إلى ذلك ومنها هذه الآيات :

« وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

آل عمران ٧٧

وفيه زيادة هي أنهم يكذبون على الله وكتابه عن علم وتعمد .
٥ - وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا
وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا
الزكاة ثم توليتهم الا قليلا منكم وأنتم معرضون .

البقرة ٨٣

- والآية تسجل عليهم خلق نقض موثيق الله وعهوده التي فيها وصاياه وتعاليمه
التمبدية والاجتماعية وإعراضهم عنها دون مبالاة . وتربط في ذلك بين الآباء
والأبناء .

٦ - ومن هذا الباب هذه الآية في السورة نفسها :
وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا
قالوا سمعنا وعصينا وأمر بوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بشئ يأمركم به
إيمانكم إن كنتم مؤمنين .

البقرة ٩٣

وفيه زيادة هي إعلانهم التصميم على عصيان الله ونقض ميثاقه وانحرافهم
إلى عبادة العجل وكان النهي عن عبادة غير الله من أمهات تلك الموثيق
والمهود .

٧ - ومن هذا الباب كذلك آية سورة النساء هذه :
« فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم
قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا .

النساء ٥٥

٨ - ومن هذا الباب أيضاً آيات سورة المائدة هذه :
« ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً . وقال الله
إني معكم لأن أقيمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتوهم وأقرضتم
الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار
فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا
قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال
تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم ..

المائدة ١٣

وفيهما زيادة وهي خلق تحريف الكلم أو الحقائق والحق بما تليه أهواؤهم ومنافعهم وتناسيهم كثيراً من أوامر الله وتعليماته دون خوف منه وتبصير أكثرهم في كل زمن مكان الخيانة والغدر بالحقوق والعهود دون مبالاة بالناس .

وهذا غير خلق نقض العهود والمواثيق مع الناس على ما يأتي بيانه بعد هذا . ومن الجدير بالذكر أن هذا الخلق قد حكته عنهم السموات من لدن موسى وما بعده على ما مر شرحه حيث يبدو أنه استمر في الأبناء جلا بعد جيل وكان قائماً في الجيل المعاصر للنبي ﷺ .

٩ - واذ قلتم يا موسى لن تؤمنن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون .

البقرة ٥٥

والآية تربط بين المعاصرين المخاطبين وبين آباءهم الأولين وتسجل عليهم خلق الماراة واللجاج . والمتبادر أن هذا الربط كان بسبب ظهور هذا الخلق في المعاصرين المخاطبين .

١٠ - ومن هذا الباب هذه الآية من نفس السورة :

واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم منها سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بفضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

٦٣

وفيهما زيادة هي التذكير بما كان قتلهم الأنبياء بغير حق وبما كان يتكرر منهم من عصيان وعدوان .

١١ - ومن هذا الباب كذلك هذه الآيات في سورة البقرة :

« واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تدبجوا بقرة قالوا اتتخذنا هزواً قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع

لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين .
 قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون .
 قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها
 قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . واذ قتلتم نفساً فادركتكم
 فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى
 ويريك آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد
 قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء
 وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون . أفطمعون أن يؤمنوا
 لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم
 يعلمون .

٦٧ - ٧٤

وفيهما زيادة هي كتمانهم واخفاؤهم ما يقع منهم من جرائم وقسوة قلوبهم
 نتيجة لذلك . وتحريفهم كلام الله عن عمد وتصميم برغم انهم فهموه على حقيقته .
 والآية الأخيرة هي التي ربطت بصراحة بين المخاطبين وآبائهم في هذه الأخلاق
 كما هو المتبادر .

١٢ - ومن هذا الباب كذلك هذه الآيات في نفس السورة :

قل التحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له
 مخلصون . أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا
 هوداً أو نصارى قل أن أنتم اعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله
 وما الله بغافل عما تعملون .

١٣٩ - ١٤٠

وفيهما زيادة هي كتمانهم العلم الذي يعلمونه عن الله بقصد التديليس
 والتضليل .

١٣ - ومن هذا الباب آيات سورة آل عمران هذه :

يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والإنجيل الا من
 بعده افلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاججتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس
 لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون . آل عمران ٦٥ - ٦٦

١٤ - ومن هذا الباب كذلك آيات سورة آل عمران هذه أيضاً :
« كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل
أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على
الله الكذب بعد ذلك فأولئك هم الظالمون .

٩٤ - ٩٣

وفيهما زيادة هي الإشارة إلى مكابرتهم فيما احتوته كتبهم وافترائهم على الله
الكذب في ذلك .

١٥ - ولقد آتينا موسى الكتاب وقضينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن
مريم البينات وأيدناه بروح القدس افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم
استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله
بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم
وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به
فلعنة الله على الكافرين بشما اشتروا به أنفسهم إن يكفروا بما أنزل الله بغياً
أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين
عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا
ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل
إن كنتم مؤمنين .

البقرة ٨٧ - ٩٢ (١)

والآيات تسجل عليهم خلق النعمة على الله لأنه أنعم على غيرهم وهو النبي
صلى الله عليه وسلم بفضلته ونبوته وساقهم ذلك إلى إنكار ما كانوا يعترفون به
ويبشرون به ويعرفون أنه الحق ويستفتحون به على الكفار قبل البعثة لشدة
الغيظ الذي انتابهم من ذلك . وقد اظهروا الترفع عن الإيمان بما أنزل الله وهو
حق مصدق لما معهم .

(١) حكى ابن هشام قول بعض أهل يثرب لما اجتمعوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ان اليهود كانوا يقولون لهم ان نبياً منكم سوف يبعث ونكون معه فنقتلكم قتل عاد وإرم والآيات تشير إلى ذلك (ج ٢ ص ١٦٦) .

١٦ - أوكلنا عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون .

البقرة ١٠٠

وتسجل الآية عليهم خلق نقض المهود جماعة تلو جماعة دون مبالاة .

١٧ - ومن هذا الباب آيات سورة الأنفال هذه :

ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

٥٥ - ٥٨ (١)

وتسجل عليهم الآية تكرر نقض العهد منهم مع خلق الغدر والخيانة .

١٨ - ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم

من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

البقرة ١٠٥ (٢)

والآية تسجل عليهم سوء النوايا نحو المسلمين وتمنى عدم نيلهم بأي نعمة وفضل . واشتراكهم في هذا مع المشركين رغم ما بينهم وبين المشركين من تباعد وتناقض في عقيدة التوحيد وما بينهم وبين المسلمين من توافق فيها !

١٩ - ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير .

البقرة ١٠٩

والآية تسجل عليهم مع الخلق المذكور في الآية السابقة خلقاً في غاية البشاعة وهو الرغبة في ارتداد المسلمين عن الإيمان بالله إلى الشرك الذي كانوا عليه من شدة حسدهم وغيظهم من بعثة النبي والتفافهم عليه رغم ما ظهر لهم أنه نبي حقاً وصدقاً .

(٢١) الروايات مجمعة على انها في حق اليهود وهي من سلسلة طويلة في مواقف اليهود من الدعوة الاسلامية والايات ٥٥ و ٥٨ بخاصة في حق بني قينقاع منهم .

٢٠ - ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون .

آل عمران ٢٣-٢٤

والآيتان تسجلان عليهم رفضهم تحكيم كتاب الله في المسائل التي يكابرون ويمارون فيها بقصد التشويش والتضليل وعدم مبالاتهم من عذاب الله على ذلك حيث يقولون إن هذا العذاب بالنسبة اليهم هو برهة قصيرة . والمتبادر ان الكتاب الذي كانوا يدعون إلى تحكيمه هو كتاب الله الذي كان في أيديهم لأنه هو الذي يمكن أن يعترفوا به وينصاعوا اليه . وهذا مما يزيد ذلك الخلق بشاعة وسوءاً .

٢١ - ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

آل عمران ٧٥^(١)

والآية تسجل عليهم خلق استحلال ما يدخل في عهدهم من ذمم وأمانات من الأمم الأخرى وعدم اعتبار أنفسهم مسئولين عن ذلك وانها حق لهم !

٢٢ - قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون .

آل عمران ٩٩

والآية تسجل عليهم صورة اخرى لما احتوته الآية (١٠٩) من سورة البقرة السابق إيرادها . مع زيادة وهي تسجيل سعيهم في تنفيذ تحقيق تلك الصورة وعدم البقاء في نطاق التمني برغم ما فيها من بشاعة لأن فيها صدأ عن توحيد الله وسبيله عن علم وبنية وعمد .

(١) ان تعبير الاميين عند اليهود ينصرف إلى غيرهم من الامم مطلقاً . والمفسرون يرون ان الفريق الأول في الآية هم النصارى والفريق الثاني هم اليهود ، وهذا متسق مع عقدة الاستعلاء والاختصاص المستقرة في نفوسهم .

٢٣ - يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من أهل الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتم الله فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

آل عمران ٩٩ - ١٠٣

في هذه الآيات صورة من صور التنفيذ اليهودي في سبيل رد المسلمين كفاراً . وقد نزلت بمناسبة فتنة أراد بعض اليهود إثارتها بين الأوس والخزرج كادت تعصف بإسلامهم وباخوتهم الإسلامية وتعد بينهم الحرب والعداء الذي زال بالإسلام . وقد سجلت على اليهود حروبهم بين المسلمين حين رأوهم متفقين منسجمين في إخوة دينية وقومية ملتفين حول هاديهم النبي العظيم بقصد تفريق شملهم وإثارة الدماء والعداء بينهم^(١) .

٢٤ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ما أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا يضرهم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط .

آل عمران ١١٨ - ١٢٠

والآيات تسجل عليهم عدم مبادلتهم المسلمين أي حب ومودة مما أظهروا لهم من ذلك وإضرارهم لهم شديد البغض والغيظ والنقمة من كل نعمة تنالهم وفرحهم لكل مصيبة تحل بهم . والمتبادر أن هذا الخلق عام فيهم إزاء كل أمة

(١) ذكر ذلك في كتب التفسير والسيرة . انظر تفسير الطبري وانظر سيرة ابن هشام

ونحلة . وكل ما في الأمر ان الآيات تسجله عليهم في مناسبة ظهوره ازاء المسلمين .
 ٢٥ - لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق وتقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين . فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير .

آل عمران ١٨٠-١٨٤

والآيات تسجل عليهم شدة الشح مع سوء الأدب مع خالقهم ورازقهم حينما يطلب اليهم مساعدة محتاج من عباده أو التبرع للشاريع الخيرية . كما تسجل عليهم المكابرة والتعجيز أمام دعوة الحق وكلمة الحق (١) .

٢٦ - ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو انهم قالوا سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً .

النساء ٤٤-٤٦

والآيات تسجل عليهم خلق الارتكاس في الضلال والانحراف عن جادة الحق عن عمد وتصميم ليضلوا بذلك المسلمين ويشككهم في دينهم ونبيهم . وخلق السخرية بالنبي وسوء الأدب في خطابه .

٢٧ - ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً .

النساء ٤٩-٥٠

(١) روى ابن هشام ان اليهود قالوا هذا لابي بكر ج ٢ ص ١٨٧

والآيات تسجل عليهم خلق التبجح وتزكية النفس واعتبارهم انفسهم فوق مستوى غيرهم ارومة وهدى وينسبون ذلك إلى الله كذباً وافتراء .

٢٨ - ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلاً . اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً .

النساء ٥١ - ٥٢

هذه الآيات نزلت بمناسبة ذهاب وفد يهودي الى مكة لتحريض قريش على النبي والمسلمين والتحالف معهم على استئصال شأفتهم . وقد ذهبوا مع زعماء قريش الى الأصنام فتهركوا بها وحلفوا لهم عندها على صدقهم في مخالفتهم . وسألهم الزعماء بالله ما اذا كانوا هم اهدى في دينهم وعقائدهم من محمد واصحابه ام ان محمداً واصحابه اهدى فقالوا لهم انهم هم الأهدى .

والآيات تسجل عليهم خلقاً في غاية البشاعة وهو ايمانهم بأصنام المشركين وشهادتهم لهم بأنه اهدى من النبي واصحابه المؤمنين بالله وحده والداعين الى مكارم الأخلاق وسبيل الله . وكل ذلك بقصد اغراء المشركين وتأليبهم على النبي والمسلمين برغم اتحادهم معهم في التوحيد واسس الدين . وبعبارة اخرى خلق الارتكاس في اشد دركات الانحراف الديني والوقوف في أي موقف مهما دنؤ وفجروا تبريرهم كل وسيلة مهما كان فيها وصمة وفسق وعار بشييل النكايه بمن يناصرونهم العداء (١) .

٢٩ - أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً .

والآيات تسجل عليهم خلق الضن بأي خير مهما تفه عن غيرهم اذا ما ملكوا واصبح في مقدورهم ان يمنعوا ويمنعوا . وخلق الحسد للغير على كل نعمة ينالها وكل فضل يصيبه من الله ولو كانوا هم يتمتعون بوافر نعم الله وفضله وخيراته .

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٠

٣٠ - فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعدنا للكافرين منهم عذاباً ألياً .
النساء ١٦٠-١٦١

والآيات تسجل عليهم خلق الظلم ومخالفة أوامر ربهم واخذ الربا الذي نهاهم عنه واستحل لهم أموال الناس وأكلها بغياً وخيانة وباطلاً .

٣١ - وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون .

المائدة ٦٢-٦٣

والآيات تسجل عليهم صورة أخرى من ما احتوته الآية السابقة . مع زيادة وهي تحلقهم بخلق الإثم والعدوان . وتسجل على احبارهم وربانيهم عدم المبالاة بهذه الأخلاق وسكوتهم عنها حيث كان ذلك مؤدياً الى استشرائها فيهم .

٣٢ - وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسمعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين^(١)

المائدة ٦٤

والآية تسجل عليهم خلق سوء الأدب نحو الله إذا ما ابتلاهم بمحنة وتناسيهم نعمه المتوالية عليهم وارتكاسهم في الكفر والبغي والطغيان عناداً وغيظاً من بعثة النبي ووحى القرآن اليه ونجاحه في مهمته وازديادهم في ذلك كلما ازداد نجاحاً ونزل عليه القرآن . وسعيهم المتواصل في الفساد في الأرض واثارة الفتن والحروب بسبيل النكاية بمن يناصبونه العداوة وشقاء غلهم منهم .

٣٤ - لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

(١) في الروايات انهم صاروا في ضيق اقتصادي بسبب انصراف العرب عنهم فقالوا ما ذكرته الايات .

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون .

المائدة ٧٨-٨٠

وتربط الآيات بين السابقين والمعاصرين من بني إسرائيل وتسجل عليهم خلق التمرد والعصيان والبغي وعدم نهي بعضهم بعضاً عن المنكرات وعدم مبالاةهم باستشرائها فيهم . وتسجل عليهم كذلك خلق التآمر مع مخالفينهم في جوهر الدين والتوحيد ضد المسلمين الذين هم متحدون معهم في ذلك وموالاتهم ايغلاً في العداوة والنكابة .

٣٥ - لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن اقربهم للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ..

المائدة ٨٧

وتقر الآية بناء على ما كان منهم تجاه المسلمين مواقف وتصرفات ونقض وتآمر انهم اشد الناس عداوة لهم متحدين في ذلك مع المشركين الذين هم اعداء اصليون وغير موحدين . بحيث يجعلهم عداؤهم لهم يبررون كل موقف وعدوان ضدهم مهما كانت الوسيلة مع انهم متحدون معهم في أسس الدين ومصدره .

٣٦ - فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون .

الأعراف ١٦٩^(١)

والآية تسجل عليهم انها كهم في اعراض الدنيا وضربهم بأوامر الله ونواهيه وكتبه عرض الحائط وتدليسهم في الحق وكذبهم فيه بسبيل تأمين تلك الاعراض وتربط المعاصرين بالسابقين في هذا الخلق . وهذه الجبل الخلقية الفاسدة المتأصلة فيهم والمتوارثة عن الآباء إلى الأبناء والمتنوعة في مظاهرها والبالغة حداً بعيداً في السوء والبشاعة والانحراف جعلت اليهود مظهر غضب الله ولعنته وعهده بأن يكونوا متسربلين بالذلة والمسكنة على ما جاء في بعض الآيات التي فيها تسجيل

(١) الآية مدنية على ما ذكرته الروايات .

واقع الحال من امرهم بين البشر في مختلف الأدوار والأمكنة في الوقت نفسه كما ترى فيما يلي :

١ - ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بجبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٢

٢ - قل يا اهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله بما أنزل الينا وما أنزل من قبله وإن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منه القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل .

المائدة ٦٠ - ٦١

٣ - وإذ تأذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم .
الأعراف ١٦٧

مواقف اليهود من الدعوة

الاسلامية في العهد المدني

- ٦ -

تمهيد

قلنا في التمهيد الأول استدلالاً من الأسلوب القرآني المبني والمدني أن اليهود لم يصطدموا مع النبي (ﷺ) في مكة وكان موقفهم من دعوته موقف تأييد وتصديق . لأنهم لم يكونوا في مكة كتلة كبيرة لها مركز يخشون عليه بينما كان حالهم في المدينة مختلفاً من حيث أنهم كانوا كتلة كبيرة لها مصالح متنوعة ومركز ممتاز . ولم يكونوا على ما يبدو يحسبون أنه سيصمد في مكة طويلاً ثم يهاجر إلى المدينة ويلتف حوله العرب ويقوى .

ومع أنهم كانوا يعرفون ان رسالة النبي حق وصدقوهم ويبشرون به ويستفتحون على العرب ويقولون لهم أنهم سيكونون واهباً حزباً عليهم على ما تلهمه آية سورة البقرة هذه :

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) .

٨٩

وآية سورة آل عمران هذه :

(كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم

٨٦

البينات والله لا يهدي القوم الظالمين) .

وآية سورة الأعراف هذه :

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ...) ١٥٧
ومع أن النبي (ﷺ) حين حل في المدينة كتب بينه وبينهم عهداً أمنهم فيه على حريتهم الدينية وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وأبقاهم على محالقاتهم مع بطون الخزرج والأوس وأوجب لهم النصر والحماية مشروطاً عليهم ألا يفدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يدوا يدأى بأذى وأوجب عليهم نصر المؤمنين والإتفاق معهم كحلفاء على ما ذكرته روايات السيرة (١) وتلهم آية سورة البقرة هذه :

(أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون)

١٠٠

وآية سورة الأنفال هذه :

(الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) .

٥٦

فلأنهم لم يلبثوا أن تطيروا من هجرته إلى المدينة واستقراره فيها وأخذوا ينظرون بعين التوجس إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الذي كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم وخشوا على هذا المركز والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها ويحنون منها أعظم الثمرات .

ولقد كان ظنهم على ما يبدو أن يجعلهم النبي (ﷺ) خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم أهدي من أن تشملهم وأمنع من أن يأمل في دخولهم في دينه وانضواؤهم إلى رايته . بل لقد كانوا يرون ان من حقهم أن ينتظروا انضمامه اليهم ويتبجحون انهم الأهدى اصحاب الخطوة عند الله على ما حكته عنهم بعض الآيات مثل آية سورة البقرة هذه :

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ١١٩-١٢٣

(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

١١١ (١)

وهذه (لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)

١٢٠

وهذه (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)

١٣٥ (٢)

وآية سورة المائدة هذه :

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ...)

١٨ (٣)

ولا سيما حينما رأوه يصلي إلى قبلتهم ويعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته ويتلو فيما يتلوه :

١ - قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

البقرة ١٣٦

٢ - آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ..

البقرة ٢٨٥

٣ - أولئك الذين هدا الله فبهداهم اقتده ..

الأنعام ٩٠ (٤)

٤ - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون .

السجدة ٢٤ (٥)

(١) سياق الايات في صدد اليهود وذكر النصارى جاء استطراداً ومن قبيل لسان الحال .
وعلى كل حال فالآيات تحكي فيها تحكيه اقوال اليهود .
(٥٢) (الايات من سياق في صدد بني إسرائيل وانبيائهم .

٥ - ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين.

الجائئة ١٦

فخاب ظنهم ورأوه يدعوه في جملة الناس بل يخلصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة ويندد بهم لعدم مسارعتهن إلى استجابتها ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف الكفر والتعطيل على ما تلهمه هذه الآيات :

١ - يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدي وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

٤٠ - ٤٤

٢ - ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصداق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصداقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .

البقرة ٨٧ - ٩١

٣ - يا أيها الذين آمنوا أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً .

النساء ٤٧

٤ - يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن

فَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

المائدة ١٩

فكان هذا على ما هو المتبادر باعثاً على تنكرهم للدعوة وحقدتهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني . ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ويتغاضون النبي (ﷺ) مرجعهم الأعلى ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع فاستشعروا بالخطر العظيم يحدق بمرکزهم الذي يتمتعون به بين العرب وامتيازاتهم التي كانوا يستغلون العرب فيها إذا تم النجاح والاستقرار للنبي ودعوته . وأرادوا أن يتمسكوا بكيانهم الخاص فكان هذا عاملاً على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والصد والتعطيل والتأمر إلى النهاية .

ولقد كان من المتوقع على ما تلهمه آيات القرآن أن يجد النبي (ﷺ) في يهود المدينة سنداً وعضداً . وإن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقوه ويلتف حولهم لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ولما احتواه القرآن من تقارير متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ومحتو على حل المشاكل والخلافات التي يتعرض بها الكتابيون وباستشهادهم خاصة واستشهاد الكتابيين عامة على صحة رسالته استهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم ولما كان من حسن استجابة الكتابيين وفيهم اسرايليون الى دعوته وإيمانهم برسالته في مكة فيكون في تحقيق هذا المتوقع تيسير لانتشار الدعوة وحسن استقبالها من سائر العرب الذين كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة الوائق بمقلهم وبصيرتهم الدينية . فلما رأى النبي (ﷺ) منهم ما رأى من الانقباض أولاً والتنكر والصد والتعطيل والبأس الحق بالباطل عن عهد وعناد ثانياً تأثر تأثراً عميقاً من خيبة أمله فيهم رددته آيات القرآن الكثيرة مما أوردناه قبل ونورده بعد منكرة منددة مقرعة وكان من اسباب تفاقم الخلاف بينهم وبينه الى النهاية كذلك .

ولقد احتوى القرآن فصولاً عديدة انطوى فيها صور متنوعة لمواقف اليهود من الدعوة في العهد المدني وتعبير أقوى تعبير عن قوة الدور الذي قاموا به وشدة نكايته وبعد مداه واثره . سواء أكان ذلك بما كان منهم من جحود وحجاج ومكابرة وعناد أزاء الدعوة . أم كيد ومكر ودس وسخرية وتشكيك وأذى بين المسلمين . أم تأمر مع المنافقين وتشجيعهم لهم حتى يمكن أن يقال انهم هم

الذين اجبوا نارهم بما بثوا وغوا فيهم من الريب والشكوك وروح التمرد والكيد وان المنافقين لولا هم لما غوا وقوا وثبتوا وكان منهم ذلك الأذي البالغ والكيد الشديد . ام مواقف عدائية سافرة وتأمر حربي مع المشركين اعداء النبي والمسلمين الأشداء الأصليين حتى كاد هذا التأمر يقع اعظم كارثة في الإسلام ويقضي عليه قضاء مبرماً في غزوة الأحزاب .

وما يحذر بالتنويه للدلالة على ما كان لموقف اليهود وعدائهم من تأثير سلمي في سير الدعوة وانتشارها وفي مركز النبي والمسلمين ومن تأثير ايجابي في قوة اعدائهم انهم لم يكادوا يتوارون عن مسرح المدينة نتيجة لما كان بينهم وبين النبي من صدام ادى الى التنكيل بهم باجلاء فريق منهم وابادة فريق منهم حتى ضعف اولوا امر المنافقين وصار الى ما وصفتهم به آيات سورة التوبة هذه :

(ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يمححون .

٥٦ - ٥٧

بعد ان بلغ من شعورهم بعزتهم وقوتهم وكثرتهم ان حرضوا الناس على النبي واصحابه المهاجرين واقسموا ليخرجن الأعز الأذل من المدينة مستشعرين انهم الأعز كما حكته آيات سورة المنافقين هذه :

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم وأرأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

٨-٥

وحتى خفت ثانياً غلواء زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون في غزو المدينة وقتال المسلمين . وحتى تزايد ثالثاً عدد المستجيبين الى الدعوة والمنضوين الى راية النبي (ﷺ) تزايداً عظيماً . وحتى بلغ الأمر رابعاً الى ان يعتزم النبي (ﷺ) الرحلة الى مكة لزيارة معجهم المسلمين وأن يحنج زعماء قريش الى مهادنته والاعتراف به ندأ . وحتى يفرغ باله خامساً فيرسل رسله وكتبه الى ملوك الأرض

في اطراف الجزيرة وخارجها يدعوهم الى الاسلام ويسمع الآفاق صوت الدعوة قويا رنانا وتتجاوب له هذه الآفاق . وحتى يصبح سادساً من القوة بحيث يعزو مكة بعشرة آلاف مقاتل ويفتحها فيهدم السور الذي كان يقوم بها بين الدعوة وسائر العرب في مختلف انحاء الجزيرة ويقبل الناس من كل صوب على النبي ويدخلون في دين الله افواجا فيتم بذلك قوطد الوحدة العربية الأولى تحت راية الإسلام . كل هذا لأن العدو الذي كان بين ظهرائي المسلمين والذي كان شديد الكيد والنشاط والمكر والأذى قد زال من الطريق . ولم يعد المنافقون يحدون من يشجعهم وينفخ في نارهم كما لم يعد هناك من يشكك العرب والمسلمين في الحق ويصددهم عن الهدى . ولم يعد أهل مكة يحدون في المدينة الاعوان والعيون والطاعنين من الخلف طعن الغدر والخيانة

وسيكون الكلام في هذا الفصل على خمسة مواضيع وهي :

١ - مواقف اليهود ازاء الدعوة بالذات .

٢ - مواقف اليهود الحجاجية .

٣ - دسائس اليهود بين المسلمين .

٤ - تأمر اليهود مع المنافقين .

٥ - تأمر اليهود مع المشركين .

أولاً : موقف اليهود ازاء الدعوة

إن كانت سورة البقرة هذه :

يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشكروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون .

البقرة ٤٠ - ٤٤

التي هي من اول ما خوطب به يهود المدينة من القرآن المدني صريحة الدلالة على انهم لم يقابلوا الدعوة الاسلامية التي وجهت اليهم مقابلة حسنة . ويلفت النظر خاصة الى ما فيها من نهي لهم عن ان يكونوا اول كافر بالقرآن . وعن الباس الحق بالباطل وكنتم الحق الذين يعرفونه وهو كون رسالة النبي ووحى الله اليه بالقرآن حقاً ومصداقاً ثم الى السؤال الاستنكاري عن امرهم الناس بالبر وعدم سيرهم في طريقه . ففي كل ذلك دلالات على المقابلة غير الحسنة للدعوة التي وجهت اليهم اولاً ثم على ظهور امارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

ولقد تبع هذه الآيات سلسلة طويلة استغرقت ثلث حيز السورة تضمنت تذكريهم بما كان من نعمة الله السابقة على آباءهم ثم بما كان من عناد هؤلاء الآباء ومواقفهم التمردية والتعجيزية من انبياء الله وواو امره ووصاياه وانحرافهم عنها وما كان من نكال الله بهم ثم تضمنت تسلياً للنبي (ﷺ) في تقرير كون الأنبياء ان يرعوا ويبذلوا الجبهة الخلقية التي ورثوها عن أولئك الآباء الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه والذين ما لبثوا ان ارتدوا الى عبادة العجل . ثم انتقلت الى الكلام عن هؤلاء الأبناء ثانية لتندد بهم على ما بدا منهم من نفاق وتحريف وكيد ودس وغرور وحسد وتناقض وكفر الخ فنكتطف منها المقاطع التالية :

١ - يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين
واقفوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ بها حساب
عدل ولا هم ينصرون . وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب
يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرغنا منكم
البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون . وإذ واعدنا موسى ليلة
ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم
تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون .

٤٧ -

٢ - وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتم
وأنتم تنظرون .

٣ - وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوها
سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا
غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون .

٥٨ - ٥٩

٤ - وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما
قنبت الأرض من بقلها وقنائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو
أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة
والمسكنة وأؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون
النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

٦١

٥ - وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة
واذكروا ما فيه إلمكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلو لا فضل الله عليكم
ورحمته لكنتم من الخاسرين . ولقد علمت الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم
كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين .

٦٣ - ٦٦

٦ - وإذ قلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه
ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من
بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار

وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون. أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرو وما يعلنون. ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون. وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون.

٧٢ - ٨٠

٧ - ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بنسأ ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين. وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين. ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بنسأ يا مكرم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

٨٩ - ٩٣

٨ - ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب الكتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

٩٩ - ١٠١

ونكتفي بهذه المقتطفات من فصول سورة البقرة في صدد موقف اليهود إزاء الدعوة وصلة هذا الموقف بمواقف الآباء اللجاجة والتمردية لأن فيها الدلالة

الكافية على الموقف الجحودي من الذي وقفوه من جهة ولأن مواقفهم الأخرى متفرعة عن هذا الموقف واستمرار له من جهة أخرى . مع التنبيه على أن في غير هذه السورة آيات عديدة في صدد هذا الموقف فيها تنديد وتقريع لليهود سوف ترد في سياق شرح المواقف الأخرى التي نزلت في صدد هذا .

ويلفت النظر في صدد هذه المقطعات :

أولاً : إلى أسلوبها فقد يكون فيها شيء مما جاء في القرآن المكي من قصص بني إسرائيل . غير أنه جاء هنا بأسلوب حملة تنديدية في حين جاء هناك بأسلوب قصصي وحسب . والمتبادر أن حكمة التنزيل اقتضت ذلك بسبب الموقف الذي وقفه يهود المدينة من الدعوة .

ثانياً : إلى شدة اللحمة التي تبدو في الآيات بين الآباء والأبناء . وما تستهدفه من تقرير وحدة الجبلية والأخلاق والمواقف والأساليب بين اليهود على اختلاف أجيالهم وكون الأبناء قد توارثوا ذلك عن الإباء جيلاً بعد جيل . بحيث يشعر القارئ أن الكلام يدور عن جماعة واحدة متصلة العهد والسبب اتصالاً وثيقاً وهذا واضح في كثرة الانتقال والالتفات في الآيات وتبدل الضمائر بين الغائب والحاضر .

وثالثاً : إلى وصف الجحود الذي تضمنته الآيات ٨٩ - ٩٣ خاصة إذ تقرر صراحة السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً جحودياً مناقضاً لمواقفهم السابقة للبعثة التي كانوا يستفتحون فيها على العرب فيجحدون شيئاً عرفوه وبشروا به فاستحقوا من أجله هذه الحملات الشديدة واللعنات القاسية . وهي البغي والحقد والحسد والنفقة على الله لأنه تفضل وأوحى إلى النبي وحمله رسالته .

ورابعاً : إلى ما تدل عليه الآيات دلالة كافية وخاصة الآيات ٧٥ - ٨٠ من أن موقفهم الجحودي من الدعوة منذ أوائل العهد المدني كان حاصماً بحيث لم يبق أي أمل في إرجعائهم وتراجعهم عنه . ولقد كان هذا هو الواقع إذ ظلوا على هذا الموقف على ما تلهمهم الآيات والفصول القرآنية العديدة باستثناء بعض أفراد من علمائهم نوهت بهم بعض الآيات كما ترى فيما يلي .

١ - ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

يسارعون في الخيرات، وأولئك هم الصالحين.

آل عمران ١١٢-١١٣ (١)

٢ - وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم
خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله
صريح الحساب.

آل عمران ١٩٩ (٢)

٣ - لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما
أنزل من قبلك والمسلمين الصلوة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر
أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً.

النساء ١٦٢ (٣)

وما كان من أحداث ومواقف متنوعة بينهم وبين النبي ﷺ والمسلمين إنما
تفرغ عن موقفهم الجحودي هذا.

هذا . ونريد ان ننبه الى نقطة مهمة . وهي ان اسلوب الآيات التي أوردناها
والذي هو أسلوب تنديدي ليس هو كل شيء في صدد دعوة اليهود الى الإسلام
فقد احتوى القرآن المدني كما احتوى القرآن المكي آيات تضمنت دعوتهم بأسلوب
هاديء لا تنديد فيه مما يدل على ان ذلك الأسلوب التنديدي إنما كان كذلك
بسبب ما كان من مقابلة اليهود غير الحسنة للهجرة النبوية وانتشار الدعوة
ودعوتهم الى الانضواء اليها .

وهذه بعض الآيات المدنية التي تضمنت دعوة اهل الكتاب الذين يدخل
اليهود فيهم بطبيعة الحال دعوة هائلة على سبيل المثال :

١ - فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب
والأمةين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير
بالعباد .

سورة آل عمران ٢٠

(٢٠١) الآيات جاءت بعد سياق في صدد اليهود .

(٣) الآية من سياق في صدد اليهود .

٢ - قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

آل عمران ٦٤

٣ - يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

المائدة ١٥ - ١٦

ونلفت النظر خاصة إلى آيات المائدة وبنوع خاص إلى الأولى منها إذ تضمنت إيذاناً بأن من الخطية التي سوف يسير عليها رسول الله العفو عن كثير مما يمكن أن يكون أو يصدر من المدعويين . والتجاوز عن هفواتهم وتوسعة الصدر لهم . وفي هذه الخطية ترغيب محبب لأهل الكتاب متسق مع الخطية القرآنية بصورة عامة ومع الخطية القرآنية المكية بصورة خاصة كما أنها تتضمن نفي كل ما يمكن أن يرد من قول مفرض عن نية مبيتة من النبي صلى الله عليه وسلم نحو اليهود خاصة فيما كان من أحداث إجلائهم والتنكيل بهم مما سوف نزيده شرحاً فيما بعد .

ثانياً : مواقف اليهود الحجاجية

(١) - من هذه المواقف ما كان حول إبراهيم عليه السلام وملته وفي صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وإن ملتهم هي خير الملل . ففي سورة البقرة الفصول التالية :

١ - وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقالت اليهود ليست النصراني على شيء وقالت النصراني ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا

يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

١١٣-١١١

٢ - ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير . الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون .

١٢٠-١٢١

٣ - ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد أصطفينا في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن ممن الله صبغة ونحن له عابدون . قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون ان إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون .

١٣٠-١٤٠

والآيات جاءت في سياق في صدد اليهود وبني إسرائيل وبعض مضامينها في معرض مواقف اليهود وحجاجهم . وهذا ما يجعلنا نرجح ان ذكر النصارى انما كان من قبيل الاستطراد ولسان الحال . ومهما يكن من أمر هذه النقطة فالآيات على كل حال تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم .

ويبدو من مضامينها وروحها ان اليهود قابلو دعوة النبي إياهم إلى الإسلام بقولهم ان الهدى هو في اليهودية . واحتجوا على دعوى النبي (ﷺ) بأنه على ملة ابراهيم عليه السلام وان دعوته اليها فقالوا ان ابراهيم هو أبوم وأبو الأنبياء وأن أبناءه ساروا على ملته وأن اليهودية التي هي دين الأنبياء والأبناء هي ملته فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً . وهذه هي ملته التي يدعو اليها النبي (ﷺ) ثم قررت العقيدة الإسلامية الواجبة على الجميع ومنهم اليهود وهي الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين جميعاً بدون تفريق بين أحد منهم . وإسلام النفس لله وحده . ودعوتهم إلى هذه العقيدة . وطمأنت النبي (ﷺ) في حال عدم استجابتهم مقررّة أنهم في شقاق وخلاف وأن الله كافيه شرهم ومكرهم .

وقد نصت الآية ١١٣ خاصة من قبيل الإفحام ودحض الحجة التي يحتجون بها على ان شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة . إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شيء منه . ويقرر النصارى هذا عن اليهود في حين أن الفريقين يتلون الكتاب إلى التوراة المشتركة بينهما ويؤمنون به . وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثاني فتصدق الشهادة على الفريقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته . ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التي قررها والتي بها وحدهما يتحد الجميع في الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من شقاقهم ومشاكلهم إذا كانوا راغبين في الحق رغبة مخلص .

ولقد جاء سورة آل عمران في صدد الحجاج حول إبراهيم وملته الفصل التالي :

(يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم حاجتم فيما لكم به علم فلم تحاجون في ما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) .

٥٦-٦٨

وفي هذه الآيات شيء مما تضمنته آيات سورة البقرة ١٣٠-١٤٠ كما هو ظاهر

وآيات البقرة قد جاءت في سلسلة وسياق في صدد اليهود . وعلى كل إجمال فإن اليهود داخلون في تعبير (أهل الكتاب) الوارد في هذه الآيات . ويصح أن يقال إنهم مشتركون في الموقف الحجاجي الذي تضمنته .

وفي الآيات حجة جديدة . وهي إن إبراهيم عليه السلام إنما عاش قبل نزول التوراة . وإن اليهودية إنما بدأ عهدها واسمها بعد التوراة . وإن ملة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن أن تكون اليهودية . وإن دعوى اليهود ذلك باطلة من أساسها . وإن آية إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته وأن تدعم أولويتهم به . فأولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته حقاً . والنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي اتبعها دوناً انحراف والتواء ودعا إليها . والذين تابعوه في دعوته من المؤمنين .

وهكذا يكون القرآن قد دمج اليهود في موقفهم الحجاجي الثاني أيضاً وزيف دعوى أولويتهم بإبراهيم بسبب أبوته لهم وحسب وجمل هذه الأولوية لمحمد صلى الله عليه وسلم ومن تابعه من المسلمين .

(٢) ومن مواقف اليهود الحجاجية ما كان حول نبوة النبي محمد (ﷺ)

بسبب عروبه . فقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين . قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

٧-٢

وروح الآيات يلهم بقوة أن اليهود ادعوا أن الله قد اختص بني إسرائيل دون سائر الأجناس بالولاية والنبوة وأنكروا نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنه ليس من بني إسرائيل . فردت عليهم الآيات بهذه التقريرات القوية : فليس من حرج على فضل الله . وهو مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء . وبهذا الفضل من على الأميين أي العرب فبعث منهم رسولا يهديهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب

والحكمة . واليهود مكابرون في دعواهم وإنكارهم . وهم يعرفون الحق ويكتمونه والتوراة قد احتوت بشارات بمبعث النبي . وإن مكابرتهم والحالة هذه تجعلهم ينقضون توراتهم ولا يقومون بما أوجبه عليهم ولا يعترفون بما فيها من بشارات . ويستحقون أن يشبهوا بالحمار الذي يحمل أسفار العلم ولا ينتفع بها . وبما لا شك فيه أن النبي واجه اليهود بهذه الآيات في مشهد استؤنف فيه الحجاج مواجهة . وما قلناه من احتواء التوراة بشارات بمبعث النبي مستلهم من جملة (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) على ضوء ما جاء في آية سورة الأعراف هذه (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يحدونهم مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ١٥٧) التي كانت تتلى علناً والتي تقرر واقعاً مشاهداً لا يمكن الممارسة فيه بأن بعض اليهود قد آمنوا بالنبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم يحدونه مكتوباً عندهم في التوراة . وهذا الواقع مؤيد أيضاً بآيات عديدة أخرى أوردناها سابقاً ذكرت خبر إيمان بعض اليهود .

(٣) ومنها مواقف حجاج فيها سوء أدب نحو الله ورسوله وتحد وسخرية

وتمجيز .

١ - فقد جاء في سورة آل عمران هذه الآيات .

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق وتقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموه إن كنتم صادقين .

١٨٠ - ١٨٣

وقد روى المفسرون في صدد القسم الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى محلة يهودية ليطلب منهم إعانة مالية في ظرف من الظروف تشبهاً مع عادة الحلف العربي وتبعاته فردوه وقالوا ذلك القول الساخر الذي فيه سوء أدب نحو الله تعالى ورووا في صدد القسم الثاني أن أبا بكر دعاهم إلى الإسلام أو أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام

فأجابوه بالجواب الذي احتواه هذا القسم . وعلى كل حال فالآيات قد انطوت
على موقف بذى ساخر في حق الله وموقف تحد وتمجيز وحجاج من النبي وقفها
اليهود .

وننبه على أن سفر الملوك الأول (١) احتوى خبر قتل كثيرين من أنبياء الله
وخبر استسراء عبادة البعل بين بني اسرائيل برعاية ملوكهم وبخاصة برعاية
آحاب ملك اسرائيل وزوجته ايزابيل وخبر مناظرة بين النبي ايليا (سمي في
القرآن الياس في سورتي الصافات والأنعام) وبين أنبياء البعل وتحمديه بإهام
بتقريب كل منهم قرباناً فمن هبطت من السماء ناراً وأكلت قربانه كان هو على
الحق . وقرب الفريقان قرايينهم فنزلت نار من السماء فأكلت قرايين النبي ايليا
ولكن هذه المعجزة لم تحمل آحاب وزوجته وبني إسرائيل على الارعواء عن
انحرافهم الديني . وهكذا استحكمت الجملة القرآنية في اليهود ودمغتهم مما
احتوته أسفارهم .

٢ - وقد جاء في سورة النساء هذه الآيات :

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا
السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا
يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً
بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً
لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً .

٤٤ - ٤٦

وقد تضمنت الآيات صورة موقف ساخر لليهود من النبي (ﷺ) حيث
كانوا يلوون ألسنتهم بكلمة (راعنا) حتى تكون نعتاً للنبي (ﷺ) بالرعونة
ويجهرون بعصيانهم فيما يأمر ويدعو . ويستعملون كلمة (عصينا) بعد (سمعنا)
بدلاً من الجملة العربية المعتادة (سمعنا وأطعنا) أو (سمعاً وطاعة) . ويدعون
عليه بالسوء فيقولون اسمع لا سمعت أو اسمع غير مستجاب وغير مسموع .
ويقصدون بكل ذلك الإنتقاص من الدعوة الإسلامية وشخص النبي والظمن

(١) انظر الاصحاحات ١٧-١٩ الطبعة البروتستانتية .

فيها .

وما يروى أن أن سعداً بن أبي وقاص رضي الله عنه انتبه الى خبثهم في لهم كلمة (راعنا) فقال لهم يا أعداء الله عليكم لعنة الله . والذي نفسي بيده لأن سمعتم من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه .

وقد يبدو من هذا ان اليهود بعد أن كانوا يعاجون النبي (ﷺ) ويقفون موقف الجحود دون أن يخرجوا ولو في مواجهة على الأقل عن حدود الأدب رأوا في أنفسهم الجرأة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدأوه بالسخرية والبذاءة . ولعل هذا كان منهم في ظرف أزمة من الأزمات التي مرت بالنبي والمسلمين كواقعة أحد فاعتنمها اليهود فرصة للشهادة واطهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد .

٣ - وقد جاء في سورة النساء أيضاً هذا الفصل الطويل :

يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . واخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً . لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً . إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق

ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتيننا داود زبوراً
رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك من قبل وكلم الله موسى
تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان
الله عزيزاً حكيماً . لكن الله يشهد بما أنزل اليك أتزله بعلمه والملائكة يشهدون
وكفى بالله شهيداً . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً
إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق
جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً .

١٥٣ - ١٦٩

والآية الأولى من هذا الفصل تضمنت حكاية موقف تحد للنبي ﷺ من اليهود .
والراجح الذي تلهمه الآيات ان هذا التحدي كان في مشهد حجاجي مواجه .
فاحتوت الآية حكاية التحدي ثم جاءت الآيات الباقية للتعقيب على هذا الموقف .
وقد ربطت موقفهم هذا موقف آبائهم . وحملت عليهم حملة شديدة بسبب موقف
الآباء في زمن موسى عليه السلام وبعده وانحرافهم عن مبدأ دينهم ونقضهم
الميثاق الذي أخذه الله عليهم وافترائهم على مريم وعيسى عليهما السلام والمتبادر
أن الآية التي ذكرت إيمان الراسخين في العالم منهم قد استهدفت دماغ اليهود
المعاصرين الذين تحدوا النبي (ﷺ) بحجة دامغة من أن العلماء الذين لا تكون
أروايم خبيثة لم يحتاجوا إلى مثل الآية التي طلبوها ليؤمنوا لأن أعلام نبوة النبي
المشاهدة وصفاته التي يجدونها في التوراة كافية لهم .

والمتبادر كذلك ان الآيات التي تلت هذه الآية قد استهدفت تقرير كون وحي
الله للنبي (ﷺ) مماثل لوحي الله تعالى للأنبياء السابقين الذين يعترفون بهم . وبيان
تناقضهم في تحديهم وتعجيزهم . وتقرير كونهم ضالين مستحقين للخلود في النار .
ومما لا ريب فيه أن النبي ﷺ قد أسمعهم هذا الفصل القوي في مشهد مواجه
وأفصحهم بالحجة القرآنية الدامغة والتفريع القرآني اللاذع .

وفي هذا الفصل ما يمكن أن يكون تقريراً عن ما كان حالهم عليه زمن
نزوله . مثل اخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل وقولهم قلوبنا غلف
وقذفهم السيدة مريم بالبهتان العظيم وزهروهم بأنهم قتلوا المسيح عليه السلام .

٤ - وفي سورة المائدة الفصل التالي :

يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تعلم له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين .

٤١-٤٣

وقد روي أن الآيات نزلت في حادث زنا اقترفه يهودي فطلب اليهود قضاء النبي فيه على أمل أن يقضي بغير الرجم الذي هو جزاء الزاني في التوراة . كما روي أنها نزلت في حادث دم أرادوا أن يستقصوا النبي فيه على ذلك الأمل وهذه الرواية أكثر اتساقاً مع سياق الآيات التي أتت بعد هذا الفصل لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء . ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة لموقف حجاج وتمجيز وتهوئش وقفه اليهود من النبي . ويبدو منها أنهم كانوا والمنافقون يبدأ واحدة في هذا الموقف وأنه كان له أثر أليم في نفس النبي (ﷺ) لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف . فاحتوت الآيات حملة على اخلاقهم وانحرافهم . وجعلت النبي في الخيار بالحكم بينهم أو رفض الحكم . مع التنبيه الرائع على وجوب الحكم بالقسط إن حكم وعدم التأثير بموقفهم اللاأخلاقي لأن الله يحب المقسطين !

٥ - وفي سورة المائدة أيضاً هذه الآية :

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين .

وقد روي في نزولها ان النبي (ﷺ) استعان ببعض اليهود على بعض الديات
تمشياً مع واجبات الحلف الذي هم مرتبطون به فشكوا له ضيق الرزق وقالوا
إن يد الله مغلولة عنهم .

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف حجاج يهودي أساء اليهود فيه أديهم في
حق الله تعالى . وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران
١٨٠ - ١٨٤ التي أوردناها قبل قليل . مع فارق كونهم في ذلك الموقف كانوا
يتبجحون بغنائم وقالوا إن الله فقير في حين أنهم في هذا الموقف كانوا يشكون
إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر والضيق بعد السعة وبالفقر بعد الغنى . وقد
تضمنت الآية حملة شديدة عليهم وتسجيلاً للعنة الله عليهم وتقريراً لأسباب
نقمتهم وهي ما كان من فضل الله على محمد صلى الله عليه وسلم برسالته
ووحيه .

ويبدو من مضمون الآية ان هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثاً مما كان
يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ قدم النبي وانتشار دعوته . ولعل
ما يصح أن يضاف إلى هذا ما قوى الاحتمال من انصراف معظم المسلمين عنهم
ومقاطعتهم لهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي ما فتئوا يقفونها واستجابة
لامر القرآن عن موالاتهم وتحذيره منهم مما تمثله آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك
فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة .

آل عمران ٢٨ (١)

٢ - يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد
إيمانكم كافرين .

آل عمران ١٠٠ (٢)

٢٤ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا
ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم

(٢٠١) هذه الايات جاءت في سياق في صدد اليهود .

الآيات إن كنتم تعقلون .

آل عمران ١١٨ (١)

٤ - بشر المنافقين بأن لهم عذاباً ألياً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً .

النساء ١٣٩ (٢)

٥ - يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً .

النساء ١٤٤ (٣)

فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد في غيظهم وسخطهم وتبرمهم ودفهمهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله ومن رد غير جميل لرسول الله .

ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان في ثانيتهما قرينة قوية على صحة ما خمناه وهما :

ولو ان اهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعم . ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون .

٦٥ - ٦٦

حيث يلح في الثانية انهم كانوا في حالة ضيق وان ذلك كان بسبب موقفهم الجحودي . وواضح ان في هذا فوق الصورة التي نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التي صار اليها اليهود . وننبه على ان الآيات وسياقها في حق اليهود . وهذا مؤيد بذكرهم صراحة في الآية ٦٤ والسياق الذي قبلها وانها تحتوي مشاهد وأقوالاً واقعية لهم بحيث يسوغ القول إن ذكر الإنجيل جاء من قبيل الاستطراد والتعميم .

(١) هذه الآيات جاءت في سياق في صدد اليهود .

(٢ و ٣) المقصود من الكافرين في الآيات هم اليهود على ما يستفاد من سياقها السابق واللاحق .

٤ - وفي سورة البقرة الآيتان التاليتان :
قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بأذن الله مصداقاً لما بين يديه
وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال
فان الله عدو للكافرين .

٩٧-٩٨

وليس لليهود ذكر في الآيتين . غير أنها جاءت في سلسلة في حق اليهود متصلة
بهما من قبل ومن بعد . كما ان الروايات تروي انها نزلتاً بمناسبة حوار وقع بين
النبي صلى الله عليه وسلم وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام . إذ سأله عن
ينزل عليه بالوحي فلما قال لهم انه جبريل قالوا هذا عدونا . وهناك رواية تذكر
انها نزلتاً بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض اليهود
قالوا فيه ان جبريل وميكال عدوان لليهود .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين موقف من مواقف اليهود التمهلية والحجاجية
متصل بوحى الله لملائكته وصلتهم بالنبي (ﷺ) كما هو المتبادر .

(٥) ومن مواقفهم الحجاجية ما كان حول القبلة والكعبة والحج .

١ - فقد جاء في سورة البقرة الفصل التالي :

سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق
والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً
لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي
كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على
الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم . ان الله بالناس لرؤوف رحيم . قد
نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد
الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون
انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب
بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن
أتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك إذن لمن الظالمين . الذين آتيناهم
الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .
الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا

الخيرات اين ماتكونوا يأت بكم الله جميعاً ان الله على كل شيء قدير . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشون ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون . كما أرسلنا فيكم رسولا يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون . ١٤٢ - ١٥٢

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة ان المقصود بكلمة السفهاء هم اليهود . وفي الآيات قرينة على ذلك في ذكر (أهل الكتاب) وكتابتهم الحق مع علمهم به بما وصف به اليهود أكثر من مرة مما مر أمثلة عديدة منه . هذا إلى أن هذا الفصل مسبوق بسلسلة طويلة في حق اليهود .

وهكذا تكون آيات الفصل قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود الحجاجية والكيدية في ظروف تبديل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة البيت الحرام .

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديد على اليهود . فقد كان النبي (ﷺ) في مكة يتجه في صلاته إلى الكعبة ثم اتجه إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس .

ومما ذكره بعض المفسرين ان هذا جرى حينما هاجر النبي إلى المدينة ليميز المسلمون عن المشركين (١) . ومما ذكره بعضهم أن ذلك كان تألفاً لليهود (٢) . وليس بين القولين تناقض حيث يحتمل ان يكون السببان معاً قد حفزا على تبديل الاتجاه من الكعبة إلى بيت المقدس .

ولم يتحقق قصد التألف لليهود من هذا التبديل . بل الراجح الذي تدل عليه روح الآيات والآيات العديدة الأخرى ان ذلك جعل اليهود يزهوون على النبي والمسلمين باتباعهم قبلتهم واعتبارهم ذلك اعترافاً منهم بأنهم على الهدى وان

(١) انظر تفسير الطبرسي

(٢) انظر تفسير الكشاف

النبي والمسلمين يقتبسون الهدى منهم وبأنهم الأولى بالاتباع لا العكس . فحز ذلك في نفس النبي والمسلمين وانبثقت في نفس النبي امنية التحول عن سمت بيت المقدس ولا سيما وقد ظهر من اليهود ما اياسه منهم .

وقد روي ^(١) « ان النبي قال لجبريل وددت ان الله صرفني عن قبلة يهود الى غيرها فقال له إنما أنا عبد مثلك . وأنت كريم على ربك فادع ربك وسله . وارتفع جبريل وجعل رسول الله يديم النظر الى السماء رجاء ان يأتيه جبريل بالذي سأله ربه فما لبث جبريل ان نزل بالآيات » .

وقد روي ^(٢) « عن الحسن وأبي العالية وعكرمة من التابعين ان النبي ﷺ كان يكثر الدعاء بأن يوجهه الله إلى الكعبة فاستجاب الله دعاءه وانزل الآيات » وقد روى البخاري والترمذي عن البراء (ان النبي ﷺ لما قدم الى المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر او سبعة عشر شهراً وكان يحب ان يوجه إلى الكعبة فأنزل الله :

« قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » .

فوجه نحو الكعبة فصلى رجل معه العصر ثم مر على قوم الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال هو يشهد انه صلى مع رسول الله وأنه قد وجه الى الكعبة فانحرفوا وهم ركوع ^(٣) .

وقد يمكن ان يزداد الى هذا ان النبي ﷺ في حين صار يائساً او كاليائس من اليهود تراآى له ان اتجاهه الى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته العرب وان عودته الى قبلته الأولى مما يؤلف قلوبهم . لا سيما وهو يعرف مكانة الكعبة بيت الله القديم وارتباط جميع العرب بها وحجهم اليها . فكان ذلك مما جعله يتمنى أن يوجهه الله إلى الكعبة . ولعل فقرة (لئلا يكون للناس عليكم حجة) في الآية (١٥٠) مما يتصل بهذا المعنى ويكون قرينة على هذا هذا الحاطر .

(١) انظر تفسير الطبرسي

(٢) تفسير ابن كثير

(٣) التاج الجامع لأصول احاديث الرسول ج ٤ ص ٤٤

والمتبادر المستلهم من روح الآيات ان اليهود رأوا في التحول الجديد ضربة شديدة توجه الى مكائنتهم الدينية ووسيلتهم الى الزهو على النبي والمسلمين فنشطوا الى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين فقالوا إذا كان سحبت بيت المقدس غير حق وصواب فقد اضاع النبي عبادة الذين صلوا اليه . وإذا كان حقاً وصواباً فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة الى الكعبة ضائعة . وقالوا ان افعال النبي لو كانت مستندة الى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله بالأمس . ولما قال اليوم قولاً ثم نقضه في الغد لاسيما في الأمور التعبدية . وهذا المعنى ورد في آيات أخرى سبقت فصل الكعبة سنورها بعد قليل .

ويبدو من روح الآيات ومضامينها ان هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر في بعض المسلمين فاحتوت الآيات تطميناً لهم . وحملة على اليهود . وتثبيتاً للنبي ﷺ فيما أروحي اليه مثل تقرير كون الأمر ليس في الاتجاه نحو الشرق او الغرب وانما هو في الاتجاه الخالص الى الله وان تبديل القبلة الأولى بالثانية اي تبديل الاتجاه الأول من الكعبة الى بيت المقدس كان اختباراً ربانياً لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول : وان من نعمة الله عليهم ان بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم ويزكيهم فحق عليهم شكره وذكره والثبات على ما فرضه وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع ما يأمر به . وان الله لا يمكن ان يضيع عليهم ثواب إيمانهم وصلاتهم . فعليهم ان يطمئنوا ولا يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون ان ما جرى هو حق وان كتموه . وان يستيقنوا ان انتقاد اليهود سفه فلا يعبأوا به . وانه لا امل في اتباعهم دعوة النبي ﷺ وقبلته فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم .

وبعض هذه المعاني وارادة في آيات أخرى سابقة ايضاً حيث تلهم روحها بقوة انها ذات صلة بالموقف وانها نزلت في مناسبة . كما ترى في المجموعات التالية :

١ - ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية او ننسخها نأت بخير منها او مثلها ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير . ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . أم

تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل . ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير .

البقرة ١٠٥ - ١٠٩

٢ - ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم .

١١٤ - ١١٥

٣ - وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتنعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .

البقرة ١٢٤ - ١٣١

ولقد روي في صدد الآية (١٠٦) أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويشيرون الشك في المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه وإن هذا ليس شأن الأنبياء ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك . فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين ورداً عليهم . فليس من غير الجائز على الله أن يذسخ آية بآية أو حكماً

بحكم أو يؤجله أو يبدله بآخر أو ينسى أحداً آية من آياته بقصد نسخها ورفعها . فإذا فعل الله شيئاً من ذلك فلحكمة يراها . ولعل الناسخ يأتي خيراً من المنسوخ . وإن الكتابيين - والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة - لا يريدون لهم أي خير كالشركين وإن كثيراً منهم يودون أن يردوا كفاراً حسداً وحقداً . وإنه لا ينبغي للمسلمين أن يقفوا من النبي ﷺ موقف اليهود من موسى في حاجونه ويرادونه ويسألونه البراهين . فإن مغبة هذا أن يتبدل إيمانهم بكفر . والذي يتبادر لنا أن اليهود غمزوا النبي بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة لأنه من باب نسخ شيء بشيء آخر بقصد الدس والتشكيك فاحتوت الآيات ما احتوته من رد وتطمين وتحذير .

وفي الآيتين ١١٤ - ١١٥ ما يمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه إذ احتوت الأولى تنديداً بن يعطل مساجد الله ويسمى في خرابها وتلهم أنها تنديد باليهود لأنهم دسوا وشككوا في ظروف تبديل القبلة وفي هذا سعي في خراب بيت الله وإهماله .

أما الثانية فباحثوا تقرير كون المشرق لله والمغرب لله وأن الله موجود أينما يولي المسلمون وجوههم قد انطوت على معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية واهتمامها بالجوهر دون العرض تلقيناً للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يثيره اليهود فيهم من شكوك ويبشونه من دسائس .

أما الآيات ١٢٤ - ١٣٠ ففيها تأكيد لقدسية الكعبة وتقرير كونها بيت الله ومعبد المظهر ومثابة للناس منذ طویل الأحقاب . ولصلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتها ومناسك حجها . ولصلة العرب بإبراهيم وإسماعيل بالنبوة وكون بعثة نبي منهم هي أمنية من أمانيهما . ولأساس ومفهوم ملة إبراهيم وهي إسلام النفس لله وحده وكون المنحرف عن ذلك ضالاً خاسراً مضيقاً لنفسه .

وننبه على ما يمكن أن تلهمه جملة (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) في الآية ١١٤ من اعتراف اليهود في موقف ما بفضل الكعبة وصلتها بإبراهيم عليه السلام وسبقها المسجد الأقصى بسبب ذلك . إذ تكون الحجة القرآنية قد دمغتهم بما كان من اعترافهم ثم انكارهم لما اعترفوا وسعيهم

ضده بالدس والتشكيك . وإذا أريد بآيات السلسلة تقوية للحجة الدامغة تقرير واقع موقفهم وبواعثه . وهو الغرض والهوى والحق والمجازاة . ولقد كانت هذه الفصول القرآنية قتلى جهرة . ولا بد من أن يكون اليهود قد سمعوها أو تليت عليهم في مشهد من المشاهد كما سمعها العرب على اختلاف سرائرهم .

ومع ذلك فإن اليهود لم يرعوا عن المكابرة في صدد الكعبة على ما تلهيه آيات جاءت في سورة آل عمران وهي هذه :

كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون . قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين . قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

٩٣ - ١٠٠

وقد روى المفسرون في صدد الآيات ٩٣ - ٩٥ من هذه الآيات أنها نزلت في مناسبة موقف حجاجي بين النبي واليهود حول تحليل النبي ﷺ لحوم الإبل وألبانها حيث انتقد اليهود ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم . ورووا في صدد بقية الآيات أنها نزلت في سياق موقف حجاجي آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى فيه اليهود أفضلية المسجد الأقصى على الكعبة . وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات . غير أنه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة في سياق موقف حجاجي واحد اتصل الموضوعان فيه . حيث يرد على البال أن اليهود أنكروا ما قررته آيات البقرة من صلة الكعبة وحجها بإبراهيم وقالوا إن التوراة لا تذكر شيئاً من ذلك فردت عليهم الآيات بأن التوراة لا تذكر أشياء كثيرة مما كان قبل نزولها وضربت مثلاً لهم بمعمرات

الأطعمة التي ذكرتها التوراة مع ان كل طعام كان حلالاً لبني إسرائيل قبلها فراوغوا فتحدثهم الآيات بتلاوة التوراة واثبات عكس ذلك ومهما يكن من أمر هذا الاحتمال فإن القسم الثاني متصل اتصالاً صريحاً بموقف حجاجي في شأن الكعبة وفضلها وقدمها . وقد احتوى تشبيهاً لما قرره آيات البقرة (١٢٤-١٣٠) من صلة إبراهيم عليه السلام بها وسبقها على كل بيت عبادة آخر . وبالتالي على المسجد الأقصى . وقد ذكر كعلامة لفضلها أن كل من دخل حرمها هو آمن وأن الله قد فرض حجبها على كل من استطاع ذلك من الناس وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة . ثم حملت الآيتان الأخيرتان على اليهود حملة قوية فاحتوت الآية الأولى منها سؤالاً إنكارياً لليهود عن سبب صدمهم عن سبيل الله وجعلها عوجاء مع ما يعرفون ما في ذلك من انحراف عن وصايا الله وأوامره . واحتوت الثانية تحذيراً للمسلمين منهم .

ومما يخطر للبال من مدى الآية الثانية أي (٩٩) أن اليهود كانوا يعترفون للعرب بفضل الكعبة وقدمها فنددت بهم الآية لأن في إنكارهم الآن صداً عن سبيل الله الذي يعرفون حقيقته . وفي جملة (وإن الذين اتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) في آية البقرة ١٤٣ التي جاءت في سلسلة تحويل القبلة إلى الكعبة ما يمكن أن يكون قرينة على ذلك .

(٦) ومما يصح أن يلحق بهذا المبحث ما حكته آيات عديدة عن غرور اليهود وتبجحهم الذين كانوا يبدوان منهم حيناً كانت توجه اليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين المسلمين حجاج وجدل . حيث يمكن أن يعدا بمثابة مواقف حجاجية بل ان الآيات الواردة في هذه الصدد لتؤيد ذلك .

١ - ففي سورة البقرة الآيات التالية :

فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون .

وقد تضمنت حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من

تعالم وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه استبقاء لما لهم عندهم من ثقة ومكانة . وحكاية لموقف تبجح ازاء ما كانوا يسمعون من الإنذار القرآني أو حينما ينكشف تدليسهم ويظهر افتراءهم على الله وكتبه ان المذنب منهم لن يعذب في النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده . والمتبادر من روح الآيات ان هذا وقع أو كان يقع منهم في مشاهد وجاهية وحجاجية .

٢ - وفي سورة البقرة الآية التالية :

وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .

٩١

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية .

والفقرة الثانية تلهم ان هذا القول منهم كان في مشهد حجاج ودعوة مواجه كما هو المتبادر .

وقد تضمنت تنديداً لاذعاً لهم فلو كانوا حقاً يؤمنون بما أنزل عليهم لما كانوا قتلوا أنبياء الله من قبل . وقد ربطت الفقرة بين موقفهم هذا وموقف آبائهم من قبل توكيداً من معنى كونهم يصدرون في مواقفهم عن جيلة خلقية منحرفة واحدة .

٣ - وفي نفس السورة الآيات التالية :

قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

٩٥-٩٤

والمتبادر أن تحدي اليهود في الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه انهم وحدهم على الهدى وانهم من أجل ذلك هم وحدهم اصحاب الخطوة عند الله في الآخرة . فتحدثهم الآية بقوة منطقية على التقريع والتزييف ثم قررت للآية الثانية واقع أمرهم وكذبهم .

ولقد جاء في سورة الجمعة تحد ورد وتكذيب مقارب كما ترى في الآيتين
التاليتين :

« قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت
إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

٧ - ٦

وبدل التكرار على أن هذا الموقف الحجاجي التبججي منهم كان يتكرر
آناً بعد آناً .

٤ - وفي سورة البقرة أيضاً الآية التالية :

« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانهم قل هاتوا
برهانكم إن كنتم صادقين » .

١١١

وقد رجحنا قبل أن كلمة (نصارى) في الآية من قبيل الاستطراد أو لسان
الحال لأن الآية من سلسلة في صدد اليهود خاصة . وعلى كل حال فقد تضمنت
حكاية لقول يهودي فيه تبجح في موقف حجاج مواجه كما هو المتبادر .
٥ - ومن هذا الباب هذه الآية في سورة البقرة أيضاً :

« وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان
من المشركين » .

١٣٥

وما قلنا في مدى الآية السابقة يقال هنا بتمامه .

٦ - وفي سورة آل عمران الآية التالية :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه
بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين
سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

٧٥

وبعض المفسرين رويوا أن المعنيين في الشطر الأول من الآية هم النصارى وفي
الشطر الثاني هم اليهود . والقول الثاني لا يمكن أن يصدر إلا عن اليهود وفيه
تأييد لصواب الرواية .

وقد انطوى في قلوبهم شعور الترفع عن غيرهم واعتبار أنفسهم فوق الناس مما له صلة بفكرة دعواهم بأنهم شعب الله المختار . وانطوى في الوقت نفسه فسيه تبجحهم الإجرامي بأنهم غير مسئولين أمام الله عن أي شيء يقترفونه ضد الأمم الأخرى بما في ذلك أكلهم أموالهم وخيانة أماناتهم . والمتبادر أن هذا القول صدر منهم في موقف حجاجي ظهرت فيه خيانتهم للأمانة . وقد كذبتهم الآية وقررت أنهم يكذبون على الله ويعلمون ذلك .

٧ - وفي سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :
« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

١٨٨

وقد روي في صدد الآية ان النبي (ﷺ) سأل اليهود عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة . ثم أخذوا يزهدون بعلمهم مع أن كذبهم لم يلبث أن افتضح . وواضح من هذا ان ذلك كان في موقف حجاجي وجاهي .

٨ - وفي سورة النساء الآيات التالية :
« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً . أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إنمناً مبيناً » .

٤٩ - ٥٠

وقد روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح اليهود بأن الله يكفر عنهم في النهار ما يقترفونه من ذنوب في الليل ويكفر عنهم في الليل ما يقترفونه من ذنوب في النهار . وعلى كل حال فالتبجح واضح في الآية . وهو متصل بدعوى الاختصاص بالخطوة عند الله . ومن المحتمل كثيراً ان التبجح صدر عنهم في موقف حجاجي وجاهي .

٩ - وفي سورة المائدة الآية التالية :
« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير » .

١٨

والآية على كل حال تضمنت حكاية تبجح صريح وعجيب صادر من اليهود .

والقسم الثاني من الآية قد يدل على أنه كان في موقف حجاجي . والقول متصل
بمدعوى الاختصاص بالخطوة عند الله . وقد استهدفت الآية دحضها .

ثالثاً : دسائس اليهود بين المسلمين

١ - في سورة البقرة الآيات التالية :

وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا
بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم
تعملون .

٤١-٤٢

وقد تضمنت نهي اليهود عن كتم الحق والباسه بالباطل عن قصد وعلم بأسلوب
التقريع والزجر . والمتبادر أن ما نهوا عنه كان يصدر منهم بقصد الدس والصد
والتشكيك بين المسلمين . والآيات من أول ما نزل في المدينة . ومعنى هذا أن
اليهود بدأوا بدسهم بين المسلمين من وقت مبكر من العهد المدني .

٢ - وفي نفس السورة هذه الآيات :

« أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه
من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم
إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون .

٧٥ - ٧٦

وقد تضمنت الآيات تقريراً بفقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي
واندماجهم في الإسلام والمسلمين . وصورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم
وصورة أخرى لتأمرهم عليهم بالتواصي فيما بينهم بأن لا يصدر منهم أي اعتراف
بحقيقة قد يكون فيها مستمسك للمسلمين أو حجة لهم عليهم .

٣ - وفي نفس السورة الآيات التالية كذلك :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب
أليم . ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير
من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . »

١٠٤ - ١٠٥

كان اليهود يخاطبون النبي ﷺ بكلمة (راعنا) التي كان العرب يستعملونها في معنى أعطنا سمعك . ولكنهم كانوا يلوون ألسنتهم فيها حتى تكون نعتاً بالرعونة للنبي وسخرية على ما شرحناء في مبحث مواقف اليهود الحجاجية في سياق شرح الآيات ٤٠ - ٤٤ من سورة النساء . والآية الأولى من آيتي سورة البقرة اللتين نحن في صددهما أي (١٠٤) تلهم ان اليهود وسوسوا لبعض المسلمين ليخاطبوا النبي بالكلمة بأسلوبهم فنبهتهم إلى عدم استعمالها ثم نبهتهم الآية التالية إلى عدم الإصغاء لوساوس اليهود لأنهم لا يريدون أن يأتيهم من ربهم أي خير .

٤ - ويصح أن تسلك آيات البقرة ١٤٢ - ١٥٢ في صدد القبلية التي أوردناها في المبحث السابق في هذه السلسلة حيث احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية بين المسلمين على ما شرحناء في المناسبة السابقة مبرحاً يغني عن التكرار .

٥ - وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وددت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتُمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدي الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

٦٩ - ٧٣

وجهور المفسرين على أن أهل الكتاب هنا هم اليهود وفي الآيات قرائن عديدة على ذلك . حيث جاء بعض هذه الآيات وما نسب فيها إلى أهل الكتاب في سلسلة آيات سورة البقرة الواردة صراحة في حق اليهود . ويبدو أن الآيات الثلاث الأولى قد جاءت للتنديد باليهود على الموقف الذي حكته لهم الآيات الأخرى . وقد تضمنت هذه الآيات صورة دس وتشكيك بشعة جداً . إذ أن اليهود تأمروا فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به حتى إذا اطمأن

المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتبايهم في بعض الأمور ليشيروا فيهم البلبلة والريبة وليجعلوهم يرتدون وتواصوا كذلك فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا لبعضهم . وبعدم الاطمئنان إلا لمن دان بدينهم لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم حجة أو ينفذون اليهم من ثغرة ما .

٦ - وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

« إن الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم . وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

آل عمران ٧٧ - ٧٨

وجمهور المفسرين على أن المقصود في الآيات هم اليهود أيضاً . وفيها قرائن على ذلك حيث جاء بعض ما فيها في سلسلة آيات البقرة الواردة صراحة في حق اليهود كذلك .

وتضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم عليهم وكسب ثقتهم وضمانة المنافع الخاصة . ويبدو من الآية الأولى أنهم كانوا يحلفون للمسلمين الأيمان على صحة ما يقولون من الأكاذيب والافتراءات . وكانوا يفعلون ذلك وينسبون إلى كتب الله ما ينسبون وهم يعلمون أنهم كاذبون .

ومن المحتمل أن تكون الآيات متصلة بالتأمر الذي حكته الآيات السابقة . وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوا المؤامرة وأخذوا يقسمون الأيمان على صدق ما قرروه تحقيقاً لهدفهم وهو تشكيك المسلمين وردهم إلى الكفر وتفريق عن النبي وإيجاد ثغرة في صفوفهم .

٧ - وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم

آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

٩٩-١٠٣

وجهور المفسرين على أن أهل الكتاب في الآيات هم اليهود . وفيها قرائن على ذلك .

وقد روي أن الآيات نزلت في مناسبة محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغيظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبي ﷺ وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك . والآية الأولى تندد بهم بسبب محاولة صد الناس عن سبيل الله وحملهم على الاعوجاج عن العقيدة الصحيحة . مع أنهم يعرفون صحة العقيدة التي عليها المسلمون . وإنذار لهم . واحتوت الآيات التالية تحذيراً للمسلمين من الاستماع إلى دسائسهم وأمرهم بالاعتصام بالله وعدم الفرقة وتذكيراً بما كان من نعمة الله عليهم في هدايتهم بعد الضلال . وجمع شملهم بعد الفرقة . وتوطيد الأخوة بينهم بعد العداء . ويبدو من صيغة الآيات وقوتها وما روته روايات السيرة أنه كاد أن يكون لدس اليهود بين الأوس والخزرج عاقبة وخيمة لولا أن تدارك الله ورسوله المسلمين بتثبيتهم وهدايتهم .

٨ - وبعد هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

١ - ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم .

١٠٤-١٠٥

٢ - كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروك إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس

وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

آل عمران ١١٠ - ١١٢

والتبادر ان هاتين المجموعتين استمرار للآيات السابقة . ففيها تحذير للمسلمين . وتهوين لشأن اليهود وقوتهم . وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذي دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نياتهم . والتقارير التي احتوتها متصلة بما كان من الدسائس اليهودية بين المسلمين . ومنبهة لهؤلاء إلى واجبهم من التضامن والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وعدم التفرق والاختلاف كما فعل الذين من قبلهم من بعد ما جاءتهم البينات فاستحقوا عذاب الله العظيم . وقد ربطت بين مواقف اليهود المعاصرين للعهد النبوي ومواقف آبائهم فقررت ان الواقع الذي عليه المعاصرون متصل بما كان عليهم اسلافهم جيلا بعد جيل . وقد يندو من الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة ومال وعدد وحصون وسلاح وان هذه الخشية كانت منفذاً ينفذ منه اليهود اليهم في الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على العنف معهم . وهذا ملموح في آية سورة الحشر هذه :

(هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) .

٢

فاستهدفت الآية (١١١) والتي تليها تهوين قوة اليهود وشأنهم في نظر المسلمين ومدى تأثيرهم فيهم . ولفت نظرهم إلى واقع حالهم من الذلة والمسكنة والجهن . ويلمح من هذا بدء تطور ازاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عن اي موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة . ولعل التنكيل باليهود قد اخذ طريقه التنفيذي بعد ذلك .

٩ - وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الايات

إن كنتم تعقلون ما أنتم أولاء محبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط .

١١٧ - ١٢٠

وجمهور المفسرين على أنها بحق اليهود وفي مضامينها قرائن على ذلك . ولقد تضمنت صورة قوية وبلغية لعداء اليهود الشديد ومكرهم ونية الشر والكيد والبغض للمسلمين . والغيظ مما بلغ إليه أمر النبي وأصحابه من القوة والعزة . وقد حذرت المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم وخططهم بهم وإطلاعهم على شؤونهم وينطوي في الصورة كما هو المتبادر صور مما كان من مواقف اليهود ونواياهم السيئة نحو المسلمين . والتنبيه إلى ما كان عند اليهود نحو المسلمين من عداو وسوء نوايا متصل كما هو المتبادر كذلك بالمواقف المتنوعة والكثيرة العلنية والسرية والقولية والفعلية التي وقفها اليهود من النبي ﷺ والمسلمين والدعوة الإسلامية . والآيات تلهم ما كان من شدة الروابط التي كانت تربط بعض العرب باليهود وقوة أثر هؤلاء فيهم . مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير في الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لهم وحملهم على نفص اليد منهم .

ولقد جاء في سورة النساء نهي فيه عتاب كما ترى في هذه الآية :
« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » .

١٤٤

وهذه الآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين الذين يتولون الكافرين . وهم اليهود على ما تلهمه قرينة السياق . غير أن الآية تلهم أن النهي كان موجهاً إلى جماعة من غير المنافقين ظلوا على ما كانوا عليه من تبادل الحلف والولاء مع اليهود .

١٠ - وفي سورة النساء هذه الآيات :
« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن

تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وأنظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً .

٤٤ - ٤٦

وقد تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية ضد المسلمين . وعدم تورع المكابرة والارتكاس في الضلال ومناقضة وصايا كتبهم وتعاليمها وتحريفهم لها وتأويلهم إياها بالباطل بقصد إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم وشق صفوفهم فضلاً عما تضمنته من سوء أدبهم نحو النبي ﷺ .

ويلحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء المسلمين . ولعل هذا الوصف يأتي لأول مرة في الآيات . ومما لا ريب فيه أن هذا كان بسبب استمرارهم في المواقف الكيدية والمؤذية .

١٢ - وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل . وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبش ما كانوا يعملون لولا إنهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبش ما كانوا يصنعون :

٥٧ - ٦٣

ومضامين الآيات وخاصة الآيات ٦٠ و ٦٣ تدل على أن اليهود هم المقصودون . وفي الآيات تحذير جديد للمسلمين عن موالاتهم . وتنبيه لهم على أن من مكروهم هم ونقمته منهم اتخذوا دينهم وآذانهم إلى الصلاة هزواً ولعباً . وفي الآيات

صورة اخرى لمكرهم ودسائسهم إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون من قبيل التدليس والتضليل . ولعلمهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمانينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ . وهذا ما احتوته الآية (٧٢) من سورة آل عمران على مر شرحه في الفقرة (٥) من هذا المبحث . والایتان الأخیرتان وإن كانتا متصلتين بأخلاقهم فانها كذلك بسبيل بيان ما كانوا يعاملون المسلمين به على الأرجح من استحلال مال وعدوان وأذى . وبكلمة اخرى ان فيها صورة لمواقفهم من المسلمين . والایة الاخيرة خاصة احتوت صورة لما كان من موقف احبارهم وربانيهم من هذه الأعمال الائمة نحو المسلمين حيث كانوا يشجعونهم عليها بسكوتهم وعدم تحذيرهم ونهيهم .

رابعاً : تأمر اليهود مع المنافقين

١ - لعل أول آية ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آية البقرة هذه :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزئون » .

١٤

حيث يروي جمهور المفسرين ان « شياطينهم » تعني اليهود . والآية من سلسلة وصفية للمنافقين . ووصف اليهود بشياطين المنافقين يفيد انهم هم الذين كانوا يوسوسون للمنافقين ويفوونهم . وذكر اختلاء المنافقين بهم يدل بصراحة على الأثر الكبير الذي كان لليهود في حركة النفاق والمنافقين . وعلى التضامن الوثيق بين الفريقين تجاه الدعوة الاسلامية .

ولقد احتوت سلسلة الايات حملة قوية على المنافقين . والمتبادر أن تواترهم وتضامنهم مع اليهود من الأسباب المباشرة لهذه الحملة . والآية المار ذكرها مع بقية السلسلة من ابكر ما نزل من القرآن المدني . وهذا يدل كما هو المتبادر على ان ذلك التوافق والتضامن بين اليهود والمنافقين . وذلك النشاط الماكر الذي نشطه اليهود في صدد هذا التوافق والتضامن قد كان منذ عهد مبكر من الهجرة

النبوية ثم استمر إلى ان مكن الله نبيه من تطهير المدينة من اليهود في أواسط العهد المدني وكان خلال ذلك ما كان من مواقف وحركات شديدة الأذى والكيد للنبي والمسلمين ودعوة الإسلامية .

٢ - في سورة النساء الايات التالية :

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً ألياً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » .

١٣٨ - ١٣٩

وجهور المفسرين على ان الكافرين في هذه الايات هم اليهود . وفيها قرينة مؤيدة لذلك . وتولى المنافقين لليهود صورة من صور التآمر المتوطد بين الفريقين كما هو المتبادر .

والايات في اصلها في المنافقين مباشرة . وقد انطوى فيها تقرير كون توليهم لليهود مظهراً من مظاهر نفاقهم الذي استحقوا به الوعيد . والسؤال الاستنكاري في الاية الثانية يدل على ان المنافقين كانوا يتولون اليهود بقصد الاعتزاز بهم . وهذا مما يزيد الصورة بشاعة والوعيد قوة .

هذا . والاسلوب المطلق العام الذي جاءت به الايتان ينطوي على تلقين مستمر المدى في حق كل من يتولى الكفار عامة واليهود خاصة ويتواءم معهم المسلمين .

٣ - في سورة المائدة الايات التالية :

يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أ هؤلاء الذين اقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين .

٥١ - ٥٣

والمفسرون يروون ان المقصود بالذين (في قلوبهم مرض) المنافقون الذين كانوا متحالفين مع اليهود وانهم لما عوتبوا على ذلك قالوا إنا نحافظ على محالفتنا

معهم لأننا نخشى عواقب الأيام .

وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صورة من صور التآمر والتحالف بين اليهود والمنافقين واستمراره رغم ما تكرر من نهي الله ورسوله عن ذلك وتحذيرهما منه .

٤ - في سورة محمد الآيات التالية :

« إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم » .

٢٥-٢٦

وجهور المفسرين على أن الآية الأولى عنت المنافقين وإن المقصود بالذين كرهوا ما أنزل الله هم اليهود . وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين . وفي ما حكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التي يضعونها صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ في المنافقين وحركاتهم .

والتعليل الذي بدأ في مطلع هذه الآية يدل على اعتبار ما كان من وعد المنافقين لليهود بالطاعة مظهرأ من مظاهر النفاق والمنافقين . وعلى أن الحملة التنديدية التي احتوتها الآية الأولى ضد المنافقين إنما هي من أجل ذلك . وواضح أن في كل هذا تلقيناً مستمر المدى لكل مسلم في كل وقت .

٥ - في سورة المجادلة الآية التالية :

« ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » .

١٤

وجهور المفسرين على أن الآية في صدد تولي المنافقين لليهود . وفي الآية قرينة على ذلك . وفيها صورة من صور التآمر كما هو واضح . والأسلوب التنديدي ضد المنافقين في الآية يدل على أن توليهم اليهود المغضوب عليهم الذين ليسوا من المسلمين وليسوا من قبيلة المنافقين هو سبب التنديد بهم ومظهر من مظاهر نفاقهم . وتلقينها مستمر المدى بطبيعة الحال .

٦ - في سورة الحشر الآية التالية :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قونلتهم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » .

١١

وجهور المفسرين على ان الذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود . ومعظم سورة الحشر نزل في صدد إجلاء يهود بني النضير عن المدينة وقد نعتهم الآية الثانية من السورة بنفس النعت :

(هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) ..

٢٠

وفي الآية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود والمنافقين كأثر من آثار التآمر المتوطد بينهما . وأسلوب الآية التنديدي يدل على أن التنديد بالمنافقين إنما هو بسبب ذلك التضامن والتحالف وانه من أسباب صفة النفاق ومظاهر المنافقين . وتلقين الآية مستمر المدى كذلك كما هو المتبادر .

...

وقد تبدو الايات التي انطوى فيها صور صريحة للتآمر بين اليهود والمنافقين قليلة . ولكن هذا لا يعني قلة الصور . ويتبادر لنا أنه مظهر من مظاهر مهارة اليهود في حرصهم على عدم الظهور بصراحة مع المنافقين في المواقف المؤذية والضارة الكثيرة التي كانوا يقفون فيها لأنهم يعرفون ان المنافقين موضع شبهة ونقمة من عامة المسلمين . وأن ظهورهم معهم سيجر إلى اشتداد الشبهة والنقمة عليهم ويضعف دور المنافقين في الوقت ذاته . وما دام القرآن وقد وصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين وتكررت فيه الإشارة إلى استمرار التولي بين اليهود والمنافقين فيصح القول ان اليهود كانوا وراء معظم المواقف التي وقفها المنافقون وانهم يتحملون مسئوليتها .

...

وقد يكون هناك نقطة يحسن الإلمام بها وتوضيحها في هذا المقام . فقد يقال إن التحالف بين اليهود وبطون الأوس والخزرج كان سابقاً للإسلام والهجرة . وإن النبي ﷺ قد اعترف بها وأبقى عليها في كتاب المواعدة الذي كتبه للناس

بعد قليل من هجرته إلى المدينة . وإن تمسك فريق بها أو اعتبار أنفسهم مقيدين بها لا غبار عليه لأنه مما يوجب الوفاء بالعهد . وإن الحملة على ذلك والنهي عنه يتناقض مع هذا الواجب . وتوضيحاً لذلك ووضعاً للامر في نصابه الحق نقول :

أولاً : إن المندد بالذين يتولون اليهود هم على الأعم الأغلب فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي ﷺ ودعوته موقف الكيد والمكر والتآمر في حين أن المحالفات كانت بين سائر فروع اليهود وسائر فروع الأوس والخزرج . ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير الله ورسوله الذي كان معللاً بمواقف كيد اليهود ومكرهم ودهسهم وتآمرهم وعدائهم وبغضائهم للمسلمين . وإذا كان بعض المسلمين ترددوا أو تأخروا في نفذ أيديهم من المحالفة فإن الذين جاهروا بالتمسك بها ولم يعبأوا بالتحذير والنهي بوقاحة وإصرار وتمرّد هم المنافقون فقط . وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف وواجب الوفاء بالعهد وإنما ما جمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للإسلام ونبيه . وما توطن بين الفريقين من توائف وتضامن وتآمر على النكاية بهما ولا يصح أن يعد من قبيل الوفاء بالعهد ولو أن المنافقين كانوا يمتدرون بذلك .

وثانياً : إن تلك المواقف التي حكّاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضاً من جانبهم لكل عهد بينهم وبين المسلمين . ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الآيات التالية :

١ - أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون .

البقرة ١٠٠

٢ - إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون .

الأنفال ٥٥-٥٦

والآيات مما نزل مبكراً . وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضاً منذ وقت مبكر . فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة واطاعتهم وتحذيره منهم شيء طبيعي سائغ لا يتمحل فيه إلا مكابر أو مفرض

ومثل هذا يقال في صدد ما يمكن أن يعتذر به المنافقون أو يقال بلسانهم من الأعذار الزائفة الكاذبة التي كانوا يتسترون بها والتي فضح القرآن نياتهم فيها فاستحكمت فيهم حجته وحملته .

خامساً : تأمر اليهود مع المشركين

إن الآيات الواردة في تأمر اليهود مع المشركين هي أيضاً قليلة بل أقل مما ورد في تأمرهم مع المنافقين . وهذا طبيعي فيما يبدو . لأن اليهود في المدينة . والصلات بينهم وبين أهلها أوثق . والشقة بعيدة عن مكة التي كان زعماءها قادة حركة العداء للنبي والدعوة الإسلامية والمسلمين . ولم يكن على الأغلب مشركون ذوو قوة وعدد في المدينة نفسها .

ومع ذلك ففي الآيات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة في الأثر والمدى .

١ - منها الآيات التالية في سورة النساء :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » .

٥١ - ٥٢

ولقد روى المفسرون في صدد الآيتين روايات مفادها أن وفداً على رأسه كعب بن الأشرف أو ابن أبي الحقيق وأخطب بن حبي وأبو عمارة وهودة بن قيس من بني النضير وغيرهم ذهبوا إلى مكة بعد وقعة أحد ليحزبوا الأحزاب على المسلمين^(١) فلما قدموا قال بعض رجال قريش هؤلاء ائجاب اليهود واهل العلم

(١) يروي ابن سعد ان كعب بن الاشرف قتل قبل وقعة أحد فتكون رأسته للوفد اليهودي غير صحيحة (انظر ج ٣ ص ٧٠) ويروي ابن سعد زعماء بني النضير قد ذهبوا مع جماعات منهم الى خيبر واقاموا فيها حينما اجلام النبي عن المدينة وان نفراً من اشرافهم ووجوههم ساروا من خيبر إلى مكة ثم الى غطفان وألبوم على غزو المدينة (٩٩-١٠٠ و ١٠٨ ج ٣) وهذا هو الوجه حيث يكون زعماء النضير أرادوا الانتقام لأنفسهم .

بالكتب الأولى فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد فسالوهم فقالوا دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه ومن تبعه . وقد دعا الوفد اليهودي زعماء قريش إلى التحالف والزحف على المدينة لاستئصال شأفة المسلمين والنبي فوافقوا وذهبوا جميعاً إلى الكعبة واقسموا عند اصنامها على الوفاء بالعهد وتمسح زعماء اليهود أو سجدوا للاصنام ارضاء وتزلفاً لقريش . وانهم بعد ذلك ذهبوا الى منازل قبائل غطفان وغيرها من قبائل العرب المشركين وتحالفوا معهم على الهدف نفسه .

وأبشع ما في الصورة المنطوية في الايات بل أشنع ما كان من اليهود أن يدفعهم الحق والحسد والعداء للنبي ودعوته والمسلمين إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد وان المشركين أهدى من المسلمين . ثم إلى عدم التورع باعلانهم الإيمان بأصنام المشركين وتكريهم لها . وهكذا ينكرون أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده في سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك والناهي عن الشرك والإثم والفواحش . وليس من ريب في أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن يمحي .

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة وقبائل المشركين ان زحفوا يجيوش جرارة على المدينة . فكان ما عرف بوقعة الخندق او الأحزاب في السنة الهجرية الخامسة . وأن زلزل هذا الزحف أعصاب كثير من المسلمين المخلصين وادخل في قلوبهم الرعب . وان كاد يمصف فعلاً بالاسلام لولا ان تداركهم الله بنعمته وصرف عنهم الاحزاب . ولم يكن قد بقي من اليهود في المدينة إلا بنو قريظة . وحين جاءت الاحزاب اعلنوا نقض عهدهم مع النبي والمسلمين وظاهروا الجيوش الزاحفة على المدينة بما زاد في حرج الموقف وشدة خطورته .

وهذا وذلك مما أشارت اليه الايات التالية من سورة الأحزاب :

١ - يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم

يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجموا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً .

١٤ - ٩

٤ - ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً .

٢٧ - ٢٥

والمجموعة الأولى تنطوي على صورة لما كان من موقف المنافقين في هذه الأزمة العصيبة من موقف خطير . والاحتمال قوي جداً أن يكون لتحريض اليهود في هذا الموقف حيث يكون في هذا صورة من صور التآمر بين اليهود والمنافقين أيضاً .

٢ - ومن الآيات التي تشير إلى تآمر اليهود مع المشركين هذه الآيات من سورة المائدة :

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . واو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون .

٨١ - ٧٨

وفي الآيات إشارة صريحة إلى أن كثيراً من اليهود في زمن النبي ﷺ كانوا يتولون الكافرين ويتواطئون معهم . وقد حلت عليهم حملة شديدة من أجل ذلك لمناقضة موقفهم لواجب دينهم . وربطت في هذه المناسبة بينهم وبين أسلافهم الذين كانوا لا يتناهون عن المنكرات - أي لا ينكروها أحد على أحد منهم - والذين استحقوا لعنة الله بخصيانهم وعدوانهم . وبما لا ريب فيه أن مواليتهم للكفار إنما كان بسائق البغضاء التي تجمع بين الفريقين نحو الاسلام

ورسوله وأتباعه . وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم . وإذا لوحظ أن الكفار كانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين بدا لنا أن ذلك الولاء كان نوعاً من المظاهرة الحربية . وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر . واقد أعقب هذه الآيات هذه الآية : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) حيث يبدو منها أن مواقف اليهود العدائية كانت مكشوفة وأن آثارها كانت ملموسة فوصفت اليهود بناء على ذلك بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين وقرنتهم في ذلك بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شدة الصدد والأذى وكانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين . ويستلهم من الآية (٨١) أن من اليهود من كان يتظاهر كذباً بالإيمان والتصديق بالنبي ففضحتهم وأقامته عليهم الحجة في موقفهم الذي لا يمكن أن يكون لو كانوا صادقين في إيمانهم . وهذه الصورة من المكر مما تكرر وروده في آيات عدة أوردناها سابقاً .

وقائع التنكيل باليهود وبعثاتها ونتائجها

تمهيد

إن اليهود لم يبقوا في نطاق وجود نبوة النبي ﷺ والقرآن الكريم . وفي المكائد والمحاكمات والدسائس الكلامية . بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر على ما ذكرناه في مناسبة سابقة . فكان تجاوزهم هذا سبباً مباشراً للدور التنكيل الذي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني ثم استمرت إلى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم وإجلاء بعضهم عن القرى الأخرى في الربعين الثاني والثالث منه .

ولقد تعددت فصول هذا الدور . وكان لكل فصل أسبابه الخاصة كما كان موضوع كل فصل فريقاً دون آخر من اليهود . وهذا يدل على أن التنكيل إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المحققين للفريق الذي حق عليه التنكيل فحسب .

كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام إلى العداء الفعلي والغدر في وقت واحد . وسبب ذلك فيما هو المتبادر أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك أو كيان سياسي وحربي واحد ومتواتق . وإنما كانوا كتلاً مستقلة . كل كتلة أو قبيلة تسكن في محلة خاصة بها . وكان بينهم خصومات أيضاً بدليل أنهم كانوا متوزعين في التحالف والولاء بين بطون قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانت بينهما خصومات كذلك على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

ونحن نعرف أن بعض الكتاب من يهود ومبشرين ومستشرقين مغرضين

يزعمون أن النبي (ﷺ) قد بيت نية التنكيل بهم وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم منذ البدء . وانه قد عمد إلى تنفيذ نيته بالتدريج وبأناس بعد أناس لأنه لم يكن له قبل بهم مجتمعين . وقد غمزوه بالنكت بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية . وبالليل إلى سفك الدم . وبالطمع في أموالهم وإغداقها على المسلمين . مما صدر منهم بسائق الثعصب والغرض وعدم القروي في فهم آيات القرآن التي احتوت ما فيه الحجة القاطعة والبيئة الحاسمة على زيف ما زعموا وسفه ما غمزوا .

فالقرآن قد ذكر في آيات البقرة ٨٤ - ٨٥ ما كانوا يقعون فيه من مخالفات دينية في قتل بعضهم بعضاً وأسر بعضهم بعضاً في معرض الذم والتنديد مما يدل على ما كان بينهم من عدا و نزاع وخصومة وعلى عدم تكتلهم .

والروايات الوثيقة تذكر ان منهم من كان متحالفاً مع بطون الأوس ومنهم من كان متحالفاً مع بطون الخزرج قبل الإسلام . وكانوا يقاتلون بعضهم حيناً كان ينشب القتال بين الأوس والخزرج فيقاتل حلفاء الأوس منهم الخزرج وحلفاءهم من اليهود ويقاتل حلفاء الخزرج منهم الأوس وحلفاءهم من اليهود فلم يبق أي محل للارتباب في أن ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة كانت هي العامل في عدم تكتلهم مما يسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بصحة ما قلناه من أنهم لم يخرجوا جميعهم في وقت واحد إلى نطاق الغدر والعداء العملي ومن أن التنكيل إنما كان يقع في نطاق إزالة خطر الفريق المبادر إلى الخروج من ذلك النطاق .

ولقد روت روايات السيرة أن بني قريظة ظلوا محافظين على عهودهم فبقوا في المدينة . فلما ذهب زعماء بني النضير إلى مكة والقبائل وحزبوا الأحزاب جاؤوا اليهم وطلبوا منهم نقض العهود ومظاهرة الأحزاب التي اعتزمت على غزو المدينة فتنشأوا وتمنعوا ثم استجابوا بعد إلحاح وإغراء شديدين^(١) مما فيه تأكيد لما قلناه : ولقد احتوت الآيات القرآنية حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة وجدل وسخرية بل ودسائس ومؤامرات وإثارة

(١) انظر ابن مشام ج ٣ ص ٢٣٥ وبعدها .

فقتن في صدد الجحود بالنبوة والقرآن وتعطيل الدعوة وتشكيك المسلمين وتفريق شملهم وردهم عن الإسلام كما احتوت مساجلات متنوعة معهم في الجدل حيناً والتنديد حيناً والإقحام حيناً والدعوة والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حيناً والاهابة بهم إلى تخفيف الغلواء والتوبة حيناً . وبكلمة أخرى لقد اتسع صدر النبي (ﷺ) لهم سعة كبيرة . وتمتعوا بحريتهم في التمسك بدينهم ومباشرة شؤونهم الاقتصادية والاستمرار في محالفاتهم واتصالاتهم السياسية والشخصية والاحتفاظ بكيانهم الطائفي والثقافي والقضائي دون انتقال من دور المساجلة إلى طور التنكيل مما تنطوي صورته في آيات كثيرة مرت في المناسبات السابقة وما أوضحت روايات السيرة الوثيقة التي لا يمكن أن يقال انها مخترعة للتبرير لأنه لم يكن آنذاك قضية تحتاج إلى تبرير . ولم ينتقل إلى طور التنكيل مع أي فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه وبعد أن يكون قد انتقل إلى موقف النكت بالعهد والأذى والغدر والتآمر والإضرار بكيان المسلمين مما تلهمه أو تدل عليه الآيات والفصول التي مرت سابقاً والتي سترد بعد عند الكلام على كل واقعة ومما توضحه الروايات الوثيقة معاً .

واليك الآن تفصيل الوقائع :

١ - قتل أبي علفك

كان أول حادث تنكيلي في اليهود سجلته الروايات قتل أبي علفك اليهودي . وكان شيخاً كبيراً . وكان شاعراً وكان يحرض على رسول الله ﷺ . فنذر سالم بن عمير من اصحاب رسول الله وشهود بدر أن يقتله أو يموت دون ذلك . واخذ يترقب فرصة لوفاء نذره حتى كانت ليلة صائفة فنام أبو علفك بالفناء وعلم سالم بذلك فأقبل عليه ووضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش فكان في ذلك حتفه (١) .

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٦٧

٢ - إجلاء بني قينقاع

في القرآن في صدد ذلك إشارات أوضحتها الروايات . ولقد ذكرت هذه الروايات التي ليس بينها خلاف جوهرى ^(١) ان هذه الواقعة كانت بعد وقعة بدر بثلاثة أشهر . ومما ذكرته ان بني قينقاع كانوا يسكنون المدينة ولهم سوق خاص وانهم أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن بدء وقعتهم كان ان امرأة من العرب جاءت يجلب لها فباعته في سوقهم . وجلست إلى صائغ منهم فجعل بعضهم يريدونها على كشف وجهها فأبى فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمده بظهرها فلما قامت انكشفت سواها فضحكوا منها فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ فشد اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهله المسلمين فوقع الشربينهم وبين بني قينقاع . وحاصرهم النبي حتى نزلوا على حكمه . وكانوا حلفاء الخزرج فتصدى عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي كبير المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم قائلاً له أحسن في موالي يا محمد فما زال يلح بأمرهم حتى وهبهم له على أن يخرجوا من يثرب . وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم فخرجوا إلى اذرعات .

ولا تذكر الروايات ان المسلمين استولوا على أراض ومزارع لهم أو سمحوا لهم بإقامة وكلاء لهم عليها كما كان الأمر بالنسبة لبني النضير وبني قريظة على ما سوف يرد بعد حيث يفيد هذا انهم كانوا تجاراً وصناعاً فقط .

ومع هذه الخلاصة فان الروايات ذكرت أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم استشعر من بني قينقاع الغيظ من نصر المسلمين في بدر - ولعلمهم أخذوا يكشفون عن غيظهم ويغمزون المسلمين - فجمعهم وحذرهم فكان جوابهم وقحاً إذ قالوا له لا يفرنك ما نلت فانك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . وأن آيات سورة آل عمران هذه :

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦ وبعدها وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ٦٧ وبعدها .

آية في فتيين التقائهما فتقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأنصار) .

١٢ - ١٣

إنما نزلت فيهم . وظروف نزول الآيات تجعل هذه الرواية سائغة لأنها نزلت بعد وقعة بدر . واحتوت إشارة إليها على سبيل الإنذار . ولا محل للتوهم بأن ذلك كان لكفار مكة . فالأمر الرباني بسبيل تبليغه لأناس مواجهة . وما يزال بينهم وبين النبي صلات سلم . وهذا إنما ينطبق على اليهود وليس على كفار مكة الذين كانوا في حالة حرب مع المسلمين .

وإذا كان ثمة شيء يلاحظ على هذا الذي اتفق ابن سعد وابن هشام على روايته في صدد نزول الآيتين فهو أن الآيتين أبعد مدى مما روي . وانها لتلهمان أنه قد بدا من اليهود ما يصح أن يعد نقضاً أو تحرشاً بحرب وقتال . فأمر الله رسوله بإنذارهم ودعوتهم الى الاعتبار بما حل في كفار مكة في بدر .

ولقد احتوت آية من آيات سورة البقرة إشارة صريحة إلى نبذ فريق من اليهود كما ترى فيها :

(أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون) .

١٠٠

وهذه الآية من السلسلة الطويلة في حق اليهود التي أوردناها في مناسبات سابقة . وهي مما نزل مبكراً . فيسوغ القول ان الإشارة التي تضمنتها هي أول نقض بعهد بدا من فريق من اليهود . وهو على الأرجح نقض بني قينقاع الذين كانوا أول كتلة يهودية وقع عليها التنكيل بسببه .

ومن المحتمل كثيراً أن يكون حلفهم من الحزج الذين كان كبير المنافقين عبد الله بن أبي سلول من زعمائهم مما جرأهم على ماجرأوا عليه من نقض ووقاحة وبغي .

ولقد احتوت سورة الأنفال آيات فيها إشارة أخرى الى نقض يهودي وهي هذه :

إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم

ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فاما تثقفهم في الحرب فشردهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) .

٥٥ - ٥٨

وسورة الأنفال نزلت عقب واقعة بدر . ولقد روى ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر أظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد وكانوا أشجع اليهود فأنزل الله (وإما تخافن من قوم خيانة .. إلى آخر الآية) فقال رسول الله أنا أخاف بني قينقاع فसार اليهم بهذه الآية . والآية إنما نزلت مع ما سبقها ولحقها من آيات فيكون سير النبي اليهم بسبب نقضهم العهد المرة بعد المرة . وتكون الرواية متسقة مع ظروف وقعتهم . مع التنبيه على أن الآية أبعد مدى من الرواية أيضاً في ذكرها نقض اليهود العهد المرة بعد المرة . وعلى هذا فيكون حادث المرأة في سوق بني قينقاع السبب المباشر الذي طفع به كأس أذاهم ونقضهم وكيدهم .

وتعير (فانبذ اليهم على سواء) يعني الأمر باعلانهم انه يقف منهم نفس الموقف الذي وقفوه وهي حل العهد القائم . وفي التعبير مغزى رائع . وهو تلقين عدم المبادرة الى القتال بدون إعلان ما دام هناك عهد قائم . كذلك فان تعير (فشردهم من خلفهم لعلهم يذكرون) جدير بلفت النظر اليه إذ انطوى فيه تلقين قصد تخويف اليهود الآخرين بما يحل ببني قينقاع لعل ذلك يجدي ويحعلهم يروعون ولا يغدرون ويمكن تفادي الحرب معهم . وفي هذا وذاك رد على المزاعم المغرضة التي أشرنا اليها في مطلع الفصل .

...

٣ - قتل كعب بن الاشرف

كان هذا اليهودي شاعراً يهجو النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم . ولما كانت وقعة بدر كبت وذلل وقال بطن الأرض خير من ظهرها اليوم . وخرج إلى مكة فبكى قتلى قريش ورثاهم شعراً وحرّض قريش على المسلمين . ولما عاد أخذ يشبب بنساء المسلمين ويهجوهم ويؤذيهم فقال النبي

(اللهم اكفي ابن الأشرف بما شئت في إعلان الشر وقوله الاشعار) ثم هتف بالمسلمين قائلا (من لي بابن الأشرف فقد آذاني) فبادر محمد بن أبي مسلمة فقال أنا له يا رسول الله فقال له (فافعل إن قدرت على ذلك) فاستأذن النبي باستعمال الحيلة معه لأنه متحصن بقومه وحصنه فأذن له . فذهب مع نفر من قومه الأوس اليه واطهروا له تشاؤمهم من استفحال امر النبي حتى اطمان لهم ثم استسبحوا غرة منه فوثبوا عليه وقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلى النبي الذي تهلل وسر وأثنى عليهم قائلا (أفلححت الوجوه) وكان ذلك في الشهر الخامس والعشرين من الهجرة ^(١) .

٤ - إجلاء بني النضير

وهؤلاء كانوا ثمانية كتلة يهودية وقع عليها التكنيل . وفي سورة الحشر فصلان يجمع رواة التفسير على انها في صدد هذه الوقعة . وكان ابن عباس يسمي سورة الحشر سورة بني النضير مما فيه تأييد لذلك . وهذان هما الفصلان :

١ - هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب . ما قطعتم من لينة ^(٢) او تركتموها قائمة على اصولها فبأذن الله وليخزي الفاسقين . وما أفاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

٢ - ٧

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٣٠ وابن سعد ج ٣ ص ٧٠ - ٧٢ .

(٢) غرة النخل الصغيرة .

٢ - ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب
لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم والله
يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم
ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله
ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء
جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .
كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ
قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان
عاقبتهم أنها في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين .

١١ - ١٧

والمجموعة الأولى جاءت في صدد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ونصره
ورسوله في هذه الواقعة دون اشتراك علي حربي منهم . وجعل ذلك مبرراً للتشريع
أيلولة ما عاد منها من الغنائم فيئاً على المصارف المذكورة دون الأغنياء لا على
أساس قسمة الغنائم على المسلمين الذين يشتركون في الحرب سواء أكانوا أغنياء أم
فقراء كما هو المعتاد . ومع ذلك ففيها بعض الصور عن الواقعة إذ يستفاد
منها :

١ - أنه كان لبني النضير حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون بالتغلب عليها
كما كان اليهود يحسبون أنها ما نعتهم .

٢ - إن اليهود قد وقع في قلوبهم خوف شديد ويأس بحيث استسلموا من
جهة وخربوا بيوتهم بأيديهم مشتركين في ذلك مع أيدي المسلمين من جهة
أخرى .

٣ - إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم ووضع يده على مزارعهم
وأملأهم .

٤ - إنه لم يقع اشتباك حربي بينهم وبين المسلمين أي إن حصارهم كان كافياً
لنصر الذي تم .

٥ - إنه كان من اليهود مواقف كيد ومشاقة مزعجة وإنها هي السبب في
حصارهم وإجلائهم .

٦ - إن النبي ﷺ أمر بقطع بعض نخيلهم الجديد الفرس لارغامهم على التسليم باذن الله وبألهامه .

أما المجموعة الثانية . فقد تضمنت صوراً لما كان من المنافقين في هذا الموقف . إذ وعدوا اليهود بالتضامن معهم تضامناً وثيقاً حتى أكدوا لهم بأنهم سيجاربون معهم إذا حاربوا وسيخرجون معهم إذا غلبوا وأخرجوا . ولكنهم كذبوا بملة وعدوا .

وقد وصفت الآيات مبلغ خوف اليهود أو المنافقين أو الفريقين معاً من المسلمين وعدم جرأتهم على مواجهتهم في الميدان . وقررت أن كل أمرهم هو القتال من وراء الحصون والجدران . كما قررت واقع ما كانت عليه حالتهم الداخلية والنفسية وهو عدم التضامن الصادق وشدة التنازع والتشاد في ما بينهم وتفرقهم شيئاً رغم ما يبدو من اتحادهم . وشبهت المنافقين بالشيطان الذي يغوي المرم بالكفر ثم لا يلبث أن يتبرأ منهم . والآيات تحكي ما كان من أمر قبل استسلام اليهود كما هو واضح . وفيها تعليل لما كان من ذلك .

والمبادر أن الآية (١٥) قد تضمنت الإشارة إلى ما كان من التنكيل ببني قينقاع . والتنديد ببني النضير الذين لم يعتبروا بما جرى من قبل على هؤلاء حتى ذاقوا وبال أمرهم مثلهم .

والروايات الواردة التي لا خلاف جوهرية بينها تكمل الصورة المستخلصة من المجموعتين (١) . ويستفاد منها أن الوقعة كانت على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة وبعد وقعة أحد بخمسة أشهر وأن سببها المباشر هو أن النبي ﷺ ذهب مع بعض أصحابه إلى محلة بني النضير التي كانت خارج المدينة ليستعين بهم على دية بعض القتلى عملاً بواجب الحلف القائم فقال بعضهم لبعض هذه فرصة لا تسنح وتآمروا على اغتيال النبي ﷺ ونبأه الله بذلك إلهاماً فنجأ وعاد مع أصحابه سالمين ثم أرسل اليهم في اليوم التالي إنذاراً بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على يساتينهم و مزارعهم . وكانوا حلفاء للخزرج الذين كان عبد الله بن أبي بن سلول كبير المنافقين من زعمائهم فأرسل اليهم باسمه واسم من ينضوي إليه في

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ١٩١ وبعدها وابن سعد ج ٣ ص ٩٨ وبعدها

التفاق من قومه يحرضونهم على الرفض ويطمثونهم بأنهم لن يحاربهم مع رسول الله بل وانهم سيحاربون معهم إذا حاربوا ويخرجون معهم إذا أخرجوا فتشجعوا وعصوا إنذار النبي فسار اليهم على رأس المسلمين وحاصرم وضيق عليهم الحناق. وأمر بقطع غراس نخل لهم إرغاماً وإرهاباً . ولم يف المنافقون بما وعدوا فاستولى عليهم الرعب واليأس ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم وهي أخذ ما تستطيع إبلهم حمله من المنقولات دون السلاح وتسليم ما عندهم من السلاح والتنازل عن بساتينهم ومزارعهم . وكان عدد ما أخذ منهم من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً . ولم تذكر الروايات تفصيلات عما استولى عليه من بساتينهم ومزارعهم .

ومما ذكرته الروايات أنهم أظهروا التجلد فخرجوا بزينتهم بين عزف القيان ودق الدفوف والمزامير وخربوا بيوتهم وحصونهم وأخذوا ما قدروا عليه من أخشائها حتى لا ينتفع به المسلمون . وقد ذهب بعضهم إلى بلاد الشام وبعضهم إلى خيبر . ومن هؤلاء زعماءهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب . وقد دان يهود خيبر لهم فعدوا زعماء اليهود في خيبر يوماً بعدها من القرى اليهودية . وقد ذكر ابن سعد أن بني قريظة اعتزلوا بني النضير ولم يعينهم . ولقد كان بنو قريظة حلفاء الأوس في حين كان بنو النضير حلفاء الخزرج حيث يبدو أن هذا التوزع كان مظهرأ من مظاهر خصومة كانت بين الفريقين اليهوديين فكان موقف بني قريظة متصلاً بذلك .

والروايات منسجمة مع ما احتوته الآيات من صور . وإن كان ثمة شيء يزداد فهو المدى الواسع الذي انطوى في الآية الرابعة إذ يصح أن يقال إن محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ إنما كانت سبباً مباشراً وأنه كان منهم قبل ذلك مواقف مؤذية ومزعجة كثيرة عبرت عنها الآية بجملة (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) فامتلاً بها الكيل وحق عليهم النكال .

٥ - القضاء على بني قريظة

لقد أشير إلى هذا الحادث في آيات من سورة الأحزاب اتفق رواة التفسير أنها في صدره وهي هذه :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيم وقذف في قلوبهم
الرب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم
وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً .

٢٦-٢٧

والآيتان جاءتا عقب سلسلة الآيات الواردة في صدد زحف أحزاب المشركين
من قريش وغطفان وغيرهم على المدينة في السنة الخامسة . وهما صريحتان بأن
بني قريظة قد ظاهروا الغزاة الزاحفين جبهة على المسلمين .

ولقد احتوت آيات الأحزاب السابقة للآيتين وصفاً للحالة الخطيرة التي
واجهها المسلمون من زحف جيش أحزاب الكفار الجرار على المدينة . وما كان
من جرأة المنافقين على تكذيب الله ورسوله وتثبيط الناس مما قد ينطوي فيه
مؤامرة خفية محبوكة الأطراف بين اليهود والمنافقين وأحزاب الكفار للقضاء على
الكيان الإسلامي قضاءً ساحقاً كما ترى فيها :

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً
وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل
منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك
ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم
مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا
مقام لكم فارجموا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي
بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة
لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار
وكان عهد الله مستولاً . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن
لا تمتعون إلا قليلاً . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد
بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . قد يعلم الله المعوقين منكم
والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . أشحة عليكم فإذا جاء
الخوف رأيتمهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا
ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله
أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت

الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبيائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً .

٢٢-٩

والوصف الذي انطوى في الآيات والذي يبين شدة الخطر الذي احسق بالمسلمين من جميع الأنحاء يبرر من دون ريب شدة التنكيل الذي أوقع على بني قريظة الذين كانت مظاهرهم للفرقة من وزراء المسلمين مضاعفة للخطر مما وصفته الآيتان ٢٦ - ٢٧ ويجعله عملاً لا معدى عنه ليتناسب مع شدة الخطر ويجعل غمز المفرضين بأنه كان قاسياً في غير محله .

ولقد احتوت الروايات التي لا خلاف في جوهرها ^(١) ما يكمل الصورة القرآنية لمجرى الحادث ويتسق مع الآيات اتساقاً غير يسير . إذ يستفاد منها :
١ - إن وفد يهودياً على رأسه زعماء بني النضير الذين أقاموا في خيبر بعد جلائهم عن المدينة ذهب إلى مكة وحرصوا زعمائهم على النبي والمسلمين وتحالفوا معهم وأقسموا على ذلك عند الأصنام في فناء الكعبة وتزلفوا لهم فقالوا لهم عندما سألوهم عن الأهدى هم أم محمد أنهم هم الأهدى . وتمسحوا بالأصنام وسجدوا لها وهو ما تضمنت الإشارة إليه آية سورة النساء هذه :
(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) .

سورة النساء ٥١

٢ - إن الوفد ذهب كذلك إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرصها ومنها بخيرات المدينة . وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة وتحالف معها كذلك .

٣ - إن حيي بن اخطب الزعيم النضري جاء بعد ذلك إلى محلة بني قريظة وقال لزعيمهم كعب بن أسد لقد جئتكم بعز الدهر وببحر طام . جئتكم بقريش

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ وبعدها وابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ - ١٢٠

على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسبال من دومة . وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نغمي إلى جانب أحد . وقد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . وأظهر كعب تردداً وتخوفاً فظل حيي بلح عليه حتى وافقه على نقض ما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد .

٤ - إن النبي ﷺ لما بلغه الخبر وكانت جيوش الأحزاب قد أقبلت أرسل زعيم الأوس والخزرج سعداً بن معاذ وسعداً بن عباد رضي الله عنهما إلى محلتهم وكانت وراء بيوت أهل المدينة لينظروا أحق ما بلغه عنهم . وطلب منهما أن لا يجيرا به إن كان حقاً لتلايفت في أعضاد الناس . وإنها قد أتياهم فوجداهم على أخصب ما بلغهم ونالوا من رسول الله وقالوا من هو رسول الله وأنكروا المهدي الذي بينهم وبينه . وأن سعداً بن معاذ حليفهم شاتمهم فشاؤوه فقال له سعد ابن عباد دع عنك مشاقمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاقمة .

٥ - لما انصرف الكفار عن المدينة مرتدين بغيطهم لم ينالوا خيراً على ما جاء في آية سورة الأحزاب هذه :

(ورد الله الذين كفروا بغيطهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) .

٢٥

ورجع الناس إلى المدينة جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له (اوضعت السلاح والملائكة لم تضعه بعد . إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة) فأمر النبي مؤذناً يؤذن في الناس (من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة) . وزحف النبي على رأس المسلمين عليهم فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار . وقذف الله الرعب في قلوبهم فقتلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم . وتشفع جماعة من الأوس لحلفاءهم وطلبوا الاكتفاء بإجلالهم كما فعل بن سبهم استجابة لشفاعة حلفائهم الخزرج . فجعل النبي الحكم في أمرهم لزعيم الأوس سعد بن معاذ . وكان قد أصابه سهم فجعله النبي في خيمة أقامها في المسجد لمداواة الجرحى ووكل بعلاجه امرأة من اسمها رفيدة فأرسل إليه فأحضره راكباً على حمار وجعل أصحابه الذين جاؤوا ليصحبوه .

يطلبون منه الرفق بـمخلفائهم فقال لهم (ان لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم) ثم حكم بقتل الرجال وسي النساء والأطفال وقسمة الأموال . فتهتف النبي صلوات الله عليه قائلا (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة) اي سموات) .

ولقد روى ابن هشام ان سعداً رضي الله عنه حينما اصابه السهم دعا الله قائلا اللهم لا تمنني حتى تفر عيني من بني قريظة . حيث يبدو انه كان شديد التأثر والنعمة عليهم من موقفهم الغادر .

وقد عرض النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام على رجال بني قريظة قبل ان يأمر بقتلهم . فلم يستجب إلا افراد قلائل . وكان عدد الذين قتلوا منهم ٧٠٠ ولم يقتل من لم ينبت له شارب واعتبرهم اطفالا وسباهم مع السي . وكان عدد النساء والاطفال المسيبين ايضاً نحو ٧٠٠ فأرسلهم النبي إلى العراق حيث بيعوا . وكان عدد السلاح المستولى عليه منهم ١٥٠٠ سيفاً و ١٥٠٠ ترساً وجحفة و ٣٠٠ درعاً . وليس في الروايات بيانات مما اورثه الله المسلمين من اموالهم وديارهم واراضيهم .

وتفيد عبارة الآية (٢٧) من سورة الأحزاب انه كان لهم مزارع بعيدة نوعاً ما عن الضاحية التي كانوا يقطنونها فاستولى المسلمون عليها بالإضافة إلى ما استولوا عليه من ارض ومال واملاك في الضاحية .

وليس في الروايات شيء عن موقف عدواني عملي لبني قريظة غير ما كان من إعلانهم النقص وشتيمهم لرسول الله وإنكارهم العهد معه حينما جاء اليهم الزعميان الأوسمي والخزرجي .

غير ان عبارة « ظاهروهم » في الآية ٣٦ من سورة الأحزاب تلهم انه بدا من اليهود اثناء إحداق الأحزاب بالمدينة اعمال مؤذية للمسلمين او تمت الى الحرب تضرر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط فوق ما اثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزادت الخطر شدة . وليس من ريب في أن التكتيل الشديد يمت بسبب وثيق الى هذه الظروف كلها ولا سيما إن هذا كان منهم دون ان يعتبروا بما كان من اجلاء بني قينقاع وبني النضير اولا وكان الموقف العصيب فتيجة سعي يهودي في ايقاد نار الحرب بقصد القضاء المبرم على المسلمين ثانياً . فلا

غرو ان كان عقابهم اشد صراحة من عقاب من سبقهم لأن الموقف كان اشد
اثراً وابعد مدى في النكاية والخطورة .

تعقيب

وبالتنكيل ببني قريظة تم القضاء على يهود المدينة الذين كانوا هم الأشد
والاقوى والاغنى والابعد نكاية واذى وكيداً . ولم يبق في المدينة من اليهود
الا افراد قلائل كانوا مسلمين ولعلمهم كانوا عرباً متهودين فتركت لهم حربة
الاقامة والدين . ولقد كان هذا فاتحة عهد جديد للاسلام والدعوة الاسلامية .
فالمنافقون الذين فقدوا محركهم القوي ومدبرهم الألمي او بالتعبير القرآني
(شياطينهم) لم يلبثوا ان اخذ شأنهم يضؤل . وصوتهم يخفت . وقوتهم تن .
وكثرتهم تتناقص . وانكشف عن المسلمين غم شديد كان يستنفد منهم كثيراً
من الجهود . ويقض المضاجع . والمشركون الذين غزوا المدينة تلك العزوة
العظمى التي زلزلت جمهور المسلمين والتي انضوى اليها نحو عشرة آلاف بتحريكهم
وتآمرهم لم يعودوا يفكرون بغزو المدينة وقتال المسلمين . حتى ان هذا قد
شجع النبي (ﷺ) فاعتزم زيارة الكعبة العام التالي بالهام الله ونتج عن الرحلة
ان اعترف زعماء قريش به ندأ وعقدوا معه صلحاً هو صلح الحديبية . والقبائل
الكثيرة التي كانت تقف موقف المتربص تبدل موقفها واخذت تتقرب الى النبي
(ﷺ) بالتعاهد والمسالمة او الدخول في الاسلام . وفرغ بال النبي فأرسل
رسله وكتبه بالدعوة الى الاسلام الى الملوك والامراء والاقبال في داخل الجزيرة
 وخارجها من عرب وغير عرب . ولم يمر ثلاث سنوات حتى استطاع ان يجمع
 جيشاً قوامه عشرة آلاف ويغزو به مكة ويفتحها فيهدم السور الكثيف الذي
 كانت مكة تقيم به بين الاسلام وسائر العرب . ويفسد عشرات الوفود الى
 المدينة من مختلف أنحاء الجزيرة ويدخل الناس في دين الله افواجا .

ويهود المدينة وان كانوا هم الاكثر والاقوى . وكان القضاء عليهم قضاء على
 القوة اليهودية الكبرى فانه كان هناك جاليات عديدة من اليهود الاسرائيليين
 تسكن قرى عديدة مما يلي الشام . وقد اهملها النبي صلى الله عليه وسلم مدة ما
 على ما كان من نيات السوء التي كانت تضرها والموقف الجاحد المتآمر المتربص

الذي كانت تقفه لأنها لم تكن من قوة الشأن ما تثير خوفاً وخطراً عاجلين بعد سحق رأس الأفعى في المدينة . ولكنه لم يكذب بعد صلح الحديبية مع قريش في في السنة التالية للقضاء على بني قريظة حتى بادر إلى تصفية أمرها وخضد شوكتها وهذا ما سوف نفضله في الحلقات التالية .

١ - قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق النضري في خيبر

ليس لهذا الحادث إشارة ما في القرآن . غير أن الروايات الوثيقة قد ذكرته بدون خلاف ^(١) . وما ذكرته هذه الروايات أن أبا رافع هذا كان من الوفد الذي ذهب إلى مكة وغطفان وحزب الأحزاب على النبي والمسلمين ثم استمر في تحريض غطفان ومن حول خيبر من مشركي العرب على حرب رسول الله وبعدهم بالجمل العظيم . فأرسل النبي بضعة أشخاص لقتله على رأسهم عبد الله بن عتيك الأنصاري الذي كان يرطن باليهودية . فلما وصلوا خيبر ذهبوا إلى بيته وطرقوا الباب وقال عبد الله باليهودية لقد جئنا بهدية إلى أبي رافع ففتحت زوجته لهم الباب فلما استراحت فيهم هددوها بالقتل فسكتت ثم عمدوا إلى الخدع وطعنوا اليهودي بأسياهم حتى قضوا عليه وعادوا فأخبروا رسول الله الذي سر وهتف لهم (أفلحت الوجوه) .

٢ - قتل أسير بن رازم وجماعة معه

وهذا الحادث مما ذكرته الروايات الوثيقة التي لا خلاف فيها ^(٢) والمستفاد منها أن يهود خيبر أمروا عليهم هذا الزعيم بعد مقتل أبي رافع . سلام بن أبي الحقيق . فأخذ يبذل جهوده في تحريض غطفان وغيرهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجه النبي عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر اليه للاستطلاع . ثم سير سرية من ثلاثين على رأسهم عبد الله . وأذن لهم أن يستعملوا الخداع معه إذا مست الحاجة . فذهبوا اليه وقالوا له ان رسول الله بعثهم اليه لاستدعائه حتى يتفاهم معه ويستعمله على خيبر . فانخدع وخرج معهم في ثلاثين من اليهود .

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٤-١٣٥ وابن هشام ج ٣ ص ٣١٣-٣١٥

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٥-١٣٦

وفي الطريق ندم على خروجه وهم بقتل المسلم الذي كان قربه ولكنه نجا منه ثم جادره بضرية كانت القاضية عليه ثم مال المسلمون على جماعته فقتلوه عدا واحداً استطاع الإفلات .

٣ - فتح خيبر والقرى اليهودية الاخرى

وهذا مما ذكرته الروايات الوثيقة التي لا خلاف فيها أيضاً . ويستفاد منها^(١) أن النبي سار إلى خيبر بعد صلح الحديبية بنحو شهرين في رواية وخمسة أشهر في رواية أخرى . وانه كان فيها حصون قوية وكثيرة ومحاربون أشداء وأن النضال معهم استغرق شهراً ونيفاً وقد أبدوا مقاومة عنيفة وكان بعض اليهود والمشقة على المسلمين ثم فتح الله عليهم واستولوا نتيجة لذلك على جميع أموالهم ومزارعهم . وان النبي أبقي من قبل من اليهود أن يتولى رعاية البساتين على نصف الغلة ماسمح الله ببقائهم والعبارة التي ذكرها ابن هشام في ذلك (أقركم ما أقركم الله) وأجلى سائرهم . وبما حدث بعد أن تم الفتح والتفاهم ان امرأة سلام بن مشكم أحد زعماء اليهود أهدت إلى النبي (ﷺ) شاة مشوية دس فيها السم فلاك شيئاً منها فاستكرهها وقال إن هذه الشاة لتخبرني انها مسمومة واستدعى المرأة فاعترفت وقالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر . ولقد مات من الشاة المسمومة أحد أصحاب رسول الله بشر ابن البراء . ولقد ظل النبي متأثراً بما لأكه منها حتى إنه قال في مرضه الذي توفي فيه لأخت بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك . وكان أصحاب رسول الله يرون أن رسول الله قد مات شهيداً بسبب ذلك .

وهكذا ظل الكيد والبغى اليهودي يعمل في مختلف الميادين إلى أن كان سبباً في موت النبي صلى الله عليه وسلم . ومع ذلك فقد روت الروايات ان النبي تجاوز عن اليهودية التي أهدته الشاة المسمومة .

(١) تفصيل غزوة خيبر وما وراءها في ابن سعد ج ٣ ص ١٥٢-١٦٣ وابن هشام ج ٣

ص ٣٧٨ - ٤٢٣ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٩٨ وما بعدها .

ولقد انصرف النبي بعد خيبر إلى وادي القرى . وكان فيها كذلك عدة حصون . وقاوم يهودها بعض المقاومة . غير أن أمرهم صار إلى ما صار إليه أمر خيبر . وأنه قد دب الرعب في قلوب يهود فدك وتبء فأرسلوا رسلهم إلى النبي (ﷺ) يصالحونه على نصف املاكهم ويعاهدونه على المسألة فقبل منهم .
ولقد ورد في سورة الفتح آيات ذكر المفسرون أنها في صدد هذه الفتوحات وهي هذه :

١ - يقول الخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ..

١٥

١ - لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً . وعدمك الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً .

٢١ - ١٨

وقالوا في سياق تفسيرها إن الله أمر نبيه بالالهام أن يسير إلى خيبر بعد صلح الحديبية وأن لا يصطحب معه إلا الذين شهدوا الحديبية . وبشره بالفتح والمغانم التي وعد الله بها الذين شهدوا الحديبية عوضاً عن غنائم أهل مكة إذ انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئاً . وقد تمسك المفسرون من المبشرين والمستشرقين بهذه الأقوال وغزوا النبي قائلين إن زحفه على خيبر لم يكن له مبرر إلا قصد سلب أموال اليهود ومكافأة أهل الحديبية بها .

وأقوال المفسرين غير موثقة . وقد ذكرت روايات السيرة القديمة أن أناساً غير الذين شهدوا الحديبية كانوا أيضاً مع رسول الله ونالوا من الغنائم . منهم نساء غفاريات استأذن رسول الله بالجهاد معه فأذن لهن وأعطاهن من الغنائم . ومنهم المهاجرون الأولون إلى الحبشة الذين عادوا في هذا الظرف والتحقوا بالنبي في خيبر ووفود الدوسيين والأشعرين الذين جاؤوا من اليمن في هذا الظرف

والتحقوا بالنبي أيضاً حيث أعطاهم من الغنائم كذلك (١) .
وآيات سورة الفتح (١٥ و ١٨ - ٢١) لا تفيد ذلك ما يمكن أن يفيد أن النبي ﷺ أمر بأن لا يصطحب معه الأعراب الذين تخلفوا عنه في رحلته إلى مكة خوفاً من العواقب على ما ذكرته آيات في سورة الفتح قبل هذه الآيات وهي :

(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نقماً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً .

١١ - ١٣

ثم بشري ربانية مسبقة بالفتح والغنائم . وحتى لو صح أن الله قد أمر النبي بأن لا يصطحب معه إلا الذين شهدوا الحديبية فليس في ذلك مسوغ للاستنباط بأن الله أراد أن يعرض عليهم ما ضاع عليهم من غنائم ، لأنه لم يكن احتمال لغنائم من رحلة مكة لو تمت لأنها إنما كانت للحج أو الزيارة .
وكل ما يفيد ذلك أن حكمة الله ورسوله اقتضت أن لا يصطحب إلا الذين ثبت إخلاصهم وتقانيهم واستعدادهم للتضحية والجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل دين الله ورسوله .

ولقد كان رؤساء الوفد اليهودي الذي ذهب إلى مكة والقبائل وتحالف معها وحزب الأحزاب وساقها إلى المدينة وحمل بني قريظة على نقض عهدهم مع رسول الله على ما شرحناه قبل هم زعماء يهود خيبر من بني النضير . ولم يرتدع هؤلاء بعد التنكيل الشديد الذي وقع على بني قريظة بل ظلوا يحرصون غطفان وغيرهم من مشركي العرب على النبي والمسلمين وغزو المدينة مما جعل النبي ﷺ يسير من اغتال الزعيمين اللذين تعاقبا الزعامة في خيبر على ما شرحناه قبل

(١) انظر المصادر السابقة الذكر وتفسير سورة الفتح في تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والحازن والطبرسي والزمخشري .

تحليل كذلك .

ففي كل هذا المبرر القوي الكافي للزحف لأن خير وما وراءها من قرى اليهود صارت مقر تأمر ومصدر إزعاج ضد المسلمين . وكل ما هنالك ان النبي لم ير خطراً عاجلاً من تأخير التنكيل بهم بعد أن صفى يهود المدينة . فلما أبرم الصلح مع مكة رأى ان الفرصة المنشودة قد سنحت فقام بالفرزوة لاتمام خضد شوكة اليهود في الحجاز وتصفيتهم وأمن جانبيهم نهائياً .

ولقد بقي اليهود الذين أبقاهم النبي لرعاية البساتين بقية حياة النبي وطيلة خلافة أبي بكر وشطراً من خلافة عمر بن الخطاب . ثم اخذوا يعيشون في المسلمين ويغشوهم وعدوا على ابن لعمر فألقوه من فوق بيت وشدغوا يديه فقال عمر إنا صالحناهم على ان نخرجهم متى اردنا وقد بلغني ان رسول الله قال في مرضه (لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان) ثم ارسل اليهم ان الله قد اذن في جلائكم فتجهزوا للجلأ^(١) . وهكذا تم تطهير الأرض المقدسة منهم .

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١١٤

كلمة الختام

وبعد فقد ابتلى العرب والمسلمون في هذا العصر باليهود في بلادهم . ومع انهم عاملوهم في ظل السلطان الذي مارسوه امدأ طويلا في مشارق الأرض ومغاربها أحسن معاملة . وآووهم وحموهم . ومنحوهم الحرية في دينهم ومعابدهم وطقوسهم وتجارتهم ومعاشهم بل وصافوهم وتواثقوا معهم وحفظوا لهم العهود شأن ما كان من النبي (ﷺ) والمسلمين نحو اسلافهم في الحجاز في حين أنهم أودوا أشد الأذى وحرموا اشد الحرمان وسيموا اشد الخسف في البلاد الاخرى فقد قابلوا العرب والمسلمين بالكفر والجحود والشر والمكر والكيد والبغي كما فعل اسلافهم من قبل استمراراً في تلك الجبلية الخلقية الفاسدة والنحيزة الشريرة الآتمة .

وكان منهم ما كان في فلسطين من مواقف غادرة باغية لم يرعوا فيها حقاً ولا ذمة ولا شرفاً ولا مروءة ولا إنسانية مما لا تزال ماثلة للعيان ترتعد لها الفرائص وتقشعر لهولها الجلود وما يزالون مستمرين على هذه المواقف . وبدا منهم ما بدا من المطامع الرهيبة والنيات الخبيثة نحو جميع الغرب وبلادهم . وساندتهم في مواقفهم اخوانهم في جميع البلاد الاخرى . وألبوا على العرب جمهرة الدول بمختلف وسائل التضليل والإغراء والمكر والدهاء والدعاية فصدق تقرير القرآن في وصفهم بأنهم اشد الناس عداوة للمسلمين . ولقد كان عدم مقابلة العرب لهم بما استطاعوا من قوة . وما بدا من تقصيرهم وعدم تضامنهم في مجاهدتهم سبباً قوياً من اسباب تمكن اليهود من فلسطين وما شجعهم على بغيهم وصار امرهم اليه من قوة . وان في الاستمرار في ذلك خطراً ليس اشد خطراً منه على بلاد العرب والاسلام وانه لمن اوجب الواجبات عليهم ان يجتهدوا في

الامر وان لا يهدأ لهم بال حتى يقضوا على جرثومة الشر قضاء مبرماً كما قضى عليها نبيهم وخلفاؤهم الراشدون ويطهروا بلادهم منها كما طهروها . وان يمدوا من اجل ذلك كل ما استطاعوا من قوة تنفيذاً لأمر القرآن . وإنهم لفاعلون إن شاء الله وقادرون عليه إذا جدوا وصدقوا . ولا يفرنهم ما يلقاه اليهود الآن من تأييد الطامعين الظالمين وعونهم . فان ذلك لن يدوم . وقد وعد الله عباده المؤمنين المخلصين بالنصر المبين إذا صدقوا الجهاد وكتب على اعدائهم اليهود الذلة والمسكنة والغضب كل ما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ولن يخلف الله وعده (١) .

(١) هذه هي خاتمة الطبعة الاولى لرسالة القرآن واليهود أبقيناها كما هي مجددين المتناف بالعرب والمسلمين إلى الجهاد في سبيل تطهير ارضهم المقدسة من رجس اليهود وإعادة السلطان العربي الاسلامي عليها معتقدين بأن الله سوف ينصرهم اذا تضامنوا واستجابوا إلى هذا المتناف واعدوا لمدومهم ما استطاعوا من قوة .

استدراكات لا بد منها

ولقد رأينا ضرورة الى ايراد بعض استدراكات لا بد منها بسبيل الايضاح والتوعية والتحذير .

أولاً : ان بعض العرب ينظرون بشيء من الازورار إلى العبرانيين وبني إسرائيل في سلك الجنس العربي بسبب ما قام بين العرب واليهود في التاريخ الحديث من عدااء وصدام ناتجين عن عدوان اليهود على فلسطين واهلها بمساندة الاستعماريين البغاة . غير ان هذه النظرة في غير محلها . فالعبرانيون وبنو إسرائيل المتفرعون عنهم هم من الارومات العربية الجنس سواء أكانوا قبلاً خاصاً هو الذي عرف باسم الخابيرو او العابيرو ام من الأموريين او الآراميين او الكلدانيين على ما يجمع عليه الباحثون مع فارق واحد هو انهم يسمون هذه الأقوام مع الجنس العربي بالساميين في حين نسميها نحن بالجنس العربي . ومن واجب المؤرخ ان يذكر ما يثبت له من حقائق بدون النظر الى اي اعتبار . وهو ما جعلنا نسلكهم في كتابنا تاريخ الجنس العربي في سلك هذا الجنس .

ومن الحق ان ننبه في هذه المناسبة على انه لا يعقل ان يكون الجنس العربي شاذاً عن البشر ليكون كله صالحاً . ففيه الصالح والطالح وفيه العادل والظالم وفيه المستقيم والمنحرف . ومنه انبياء الله ومنه العريقون في الكفر والاجرام . مما هو بديهي لا يحتاج إلى مرأى مع القول ان القبيل الاسرائيلي قد جاء شاذاً حيث كان في مختلف سيرته المعروفة منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد من اسوأ ما يكون قسوة وظلماً وعدواناً وحقداً وشرهاً وانحرافاً إلا قليلاً جداً على ما يبدو من خلال تاريخهم نتيجة لعقدتهم النفسية التي انفردوا بها والتي نبهنا عليها والتي جعلتهم يشعرون بالانفصال والازالة والتعالي عن غيرهم ولا يندمجون معهم .

ويجيبون لهم الدسائس ويبيتون لهم المطامع . ويشرهمون الى ما في ايديهم . ويستحلون أموالهم ودماءهم بفسياً وعدوانا وبدون تورع ولا حرج ولا سابق استفزاز وعداء حتى صاروا أسوأ قبيل بشري وحتى لم تر الأمم التي بليت بهم في القديم والحديث علاجاً لهم إلا التتكيل بهم حتى الإبادة أو الإجلء كما فعل المصريين القدماء ثم الآشوريون ثم البابليون ثم اليونان ثم الرومان وكما أراد أن يفعلهم الفرس في السبي . وكما كان شأنهم في الحجاز وإبان البعثة النبوية على ما مر شرحه في ثنايا الكتابين الذين يضمهما هذا المجلد وكما كان شأنهم في أوروبا في القرون الثلاثة الأخيرة وموقف الألمان الحاكم القاصم منهم في الحرب العالمية الثانية .

وثانياً : يزعم الصهيونيون وهم الذين يقومون بالحركة اليهودية السياسية الحديثة المسماة بالصهيونية - نسبة إلى صهيون . وهو اسم قديم لهضبة في القدس كان أقام عليها داود قصره حينما صار له الملك واتخذ القدس - أوورشليم - عاصمة له - أن اليهود المعاصرين يمتون بنسب وثيق من الدم إلى بني إسرائيل القدماء . ويربطون حركتهم بتاريخ هؤلاء في فلسطين ويجعلونه سنداً ومبرراً لما يهدفون اليه من إقامة دولة لهم في فلسطين وما جاورها . وهي دعوى لا تستند إلى أي أساس من منطق وتاريخ صادق .

فبالإضافة إلى أن دعوى حق اليهود بالعودة إلى فلسطين وإنشاء سلطان لهم فيها وفيما جاورها لأن بني إسرائيل عاشوا فيها زمناً ما قبل ألفي سنة باطلة ومضحكة . وبالإضافة كذلك إلى أن بني إسرائيل قد طرأوا على فلسطين طروءاً وهي غاصة بالسكان ولم يكن لهم فيها أي مجد ومفخرة على ما تقدم شرحه في القسم الأول من الكتاب فإن دعوى اليهود المعاصرين بصلتهم ببني إسرائيل القدماء هي زائفة أيضاً لأن معظم الفئة القليلة التي بقيت في فلسطين بعد ضربات الرومان القاصمة في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد من بني إسرائيل اعتنقوا المسيحية ثم الإسلام واندمجوا في العروبة الصريحة مثل معظم غيرهم من السكان القدماء . ومعظم الذين تشرّدوا في أنحاء الشام ومصر وشمال افريقية ونجوا من القتل واعتنقوا الإسلام واندمجوا في العروبة الصريحة كذلك . والذين حافظوا على يهوديتهم عاشوا بين الأقوام الأخرى في آسيا وأوروبا وأفريقيا فاختلطت دماؤهم بدماء هذه الأقوام . وهذا فضلاً عن أنه من الثابت أن كتلا كبيرة من أصل آري في آسيا وأوروبا اتخذت اليهودية ديناً . منهم من

فعل ذلك قبل الميلاد ومنهم من فعله بعده ^(١) . بحيث يصح أن يقال إن معظم اليهود اليوم من أنسال هذه الكتل . وإن الدم الإسرائيلي الذي كان في الجذود الأولين قد باد أو كاد أن يبيد . وإن قصارى ما في الأمر أن الدين اليهودي هو الطابع المخصص للكتل التي تدين بهذا الدين والتي تمت إلى مختلف الأجناس والدماء والألوان والقارات والدول .

وإن أسفار العهد القديم التي ظل اليهود يتداولونها ويتدارسونها مع التلمود ويعتبرونها كتبهم ومراجعهم الدينية والتشريعية والطقسية والتاريخية ظلت تؤثر فيهم وتطبعهم بطابع الجبل الشاذة التي تميز بها بنو إسرائيل القدماء . وليس من شأن هذا أن يسبغ عليهم صفة قومية متميزة تتصف بها حركتهم الجديدة أو يخرج هذه الحركة عن صفة كونهم جماعات دينية وحسب . ومحاولة إحياء اللغة العبرانية القديمة التي حفظتها الكتب والأسفار الدينية وظلت في نطاقها وحسب هي عملية اصطناعية ومتصلة بفكرة النزوع إلى إحياء قومية زائفة لها لغة خاصة مما أوحى به حالة اليهود الاجتماعية والسياسية . حيث رأى بعض رجالهم في أواخر القرن التاسع عشر أن لا خلاص لبني دينهم من تلك الحالة التي كان من مظاهرها انتشار الكراهية والبغضاء ضد اليهود في كل قطر وجدوا فيه

(١) أن الشعوب التي أرسلها أمرحدون إلى فلسطين وأسكنها بلاد السامرة بعد نصف مملكة إسرائيل اعتنقت المسيحية . وكثيراً من أهل العراق اندمجوا مع بني إسرائيل في أيام السبي واعتنقوا اليهودية على ما ذكرته أسفار العهد القديم وأوردناه قبل . وقد ذكرت الموسوعة اليهودية في مجلدها السادس خبر اعتناق قبائل الخزر الآرية للدين اليهودي وانتشارها بعد ذلك في أنحاء روسيا ومنها إلى أوروبا الوسطى في مختلف الظروف . وهؤلاء هم طوائف اليهود المسماة بالشكناز والتي تؤلف أكثرية اليهود . ولا شك في أن اعتناق اليهودية من قبل جماعات آرية الجنس ليس قاصراً على الخزر . وكل ما في الأمر أن الخزر أكبر الكتل اليهودية . ولقد أورد البلاذري في كتابه في فتوح البلدان (ص ٢٠٨) نص كتاب أمان كتبه القائد العربي حبيب بن مسلمة لأهل مدينة واسيل في بلاد أرمينية والخزر جاء فيه (أنه أعطى الأمان لنصارام ومجوسهم ويهودهم) أي أنه كان في مناطق أرمينية والخزر يهود في أوائل القرن الهجري الأول - القرن الميلادي السابع - متداً إلى ما قبل ذلك . والمتبادر أن لا يكون ذلك في مدينة واحدة فقط .

وبخاصة في أوروبا نتيجة لانقطاعهم عن مجتمعاتهم وسوء نواياهم في مختلف الاساليب نحو هذا المجتمع نتيجة لانطباعهم بطابع الجلبة الشاذة كما أسلفنا قبل قليل إلا بإيجاد مكان يجتمعون فيه ويحيون كأمة فتفتقت في ذهنهم فكرة الذهاب إلى فلسطين وإحياء اللغة العبرانية . لأنهم رأوا في تاريخ اليهود القديم ما يمكن أن يكون سنداً لفكرتهم . وباعثاً على اعتناقها من قبل اليهود فكانت الحركة الصهيونية التي اقتبس اسمها من اسم احد تلال مدينة القدس اورشليم عاصمة مملكة داود وسليمان ويهوذا وكان المعبد اليهودي البائد والتي ترمي إلى حشد اليهود في فلسطين وإقامة دولة وكيان قومي فيها بقوة الدافع الديني والذكريات التاريخية مهما كان ذلك بعيداً عن الحقائق ومناقضاً للعلم والتاريخ والمنطق السليم .

وبقاء اليهود في كل مكان وجدوا فيه كتلا منطقية على نفسها في مساكنها ومعايشها وأخلاقها وعاداتها معرضة للاحتقاد والاضطهاد والاحتقار وخاصة في القرن السابع وما قبله ليس من شأنه ان يعرض صفة القومية المتميزة فيهم ويصل بينهم وبين بني إسرائيل القدماء الذين يريد الصهيونيون نسبة اليهود المعاصرين اليهم . وإنما هو متصل بوجودهم بين الكثرة الدينية الأخرى التي يقوم العداء الديني والاجتماعي والاقتصادي بينها وبينهم . ونتيجة من نتائجهم . ومظهر من مظاهر حياة الأقلية الدينية والمذهبية وما تفرضه هذه الحياة وامتدادها في القرون الوسطى وبخاصة بالنسبة لليهود الذين تميزوا بجملة خلقية وسلوكية خاصة إزاء الأمم والنحل الأخرى .

واستمرار استعمال اللغة العبرانية لا يسند تلك الصفة . لأنها كانت لغة الأسفار والطقوس الدينية . وكان هذا الاستعمال إلى أمد قريب منحصراً في رجال الدين اليهودي فقط الذين كانوا يتعلمونها من أجل ذلك . أما الجمهور اليهودي في مختلف أنحاء الأرض فقد كان وما زال لا يتكلم بها . حتى الجمهور الذي حشد في فلسطين ممن تجاوزت أسنانه سن الشباب . ومحاولة السلطات اليهودية في فلسطين تنشئة الاجيال الجديدة عليها وجعلها اللغة الرسمية هي مظهر من مظاهر الحركة الصهيونية الحديثة وعملية صناعية مثلاً .

وتطلع اليهود إلى فلسطين عبر القرون الطويلة وهو مما يسوقه الصهيونيون

كدليل أو سند لحركتهم وتعلقهم بفلسطين لا يعضد كذلك تلك الصفة لأنه لم يكن في وقت ما إلا تطلعاً دينياً اثاره في اجيالهم المتعاقبة تداول وتدارس الأسفار والذكريات الدينية والتاريخية .

على أن الهدف الصهيوني لم يتحقق في معناه ومداه القومي والديني والتاريخي المزعوم برغم ما بذله الصهيونيون من جهود جبارة ودعايات قوية . وحكود من مؤامرات واسعة . وحتى برغم ما وصلوا اليه من نتائج ايجابية قد تبدو عظيمة فيما تم من حشد عدد كبير من اليهود في القسم الذي ساعدهم طواغيت الاستعمار وتقدير العرب وخيانة بعضهم على اغتصابه من فلسطين . وفيما أنشأوه من منشآت . وحصلوا عليه من اعترافات دولية بكيانهم . فاليهود الذين حشدوا الى الآن في فلسطين لا يزيدون إلى الآن (سنة ١٩٦٦) عن ١٥٪ من مجموع يهود العالم . وتسعون بالمئة من المحشودين لم يأتوا بدافع صهيوني قومي وديني وتاريخي وبكلمة ثانية بدافع عاطفي وهو المفروض بالحركة الصهيونية وإنما أتوا بالدرجة الاولى بدافع الفقر والبطالة والخوف من الاضطهاد والإغراء بالحياة الآمنة الرضية . ولم يأت من اليهود من هم في حالة مادية حسنة وأمن ممن يعيشون في أوروبا الغربية والأميركتين إلا القليل جداً برغم ما يتظاهرون به من حماس للصهيونية . ورغم ما بذل من جهود ودعايات وإغراءات وخداع . لأن ذلك الهدف غير متسق مع طبائع الأشياء وراهن الوقائع في شيء . ولم يبق في الأرض جماعات كبيرة من اليهود تحفزها حالتها إلى الهجرة إلى فلسطين . ففي الاميركتين نحو ستة ملايين . وفي أوروبا الغربية نحو مليون ونصف . وجميع هؤلاء في حالة يسر وأمن اجتماعي ولن يجازفوا بها . لأنه ليس في فلسطين عوض عنها قط . وهؤلاء هم ٦٠٪ من يهود العالم تقريباً . و ١٥٪ منهم في فلسطين . و ٢٥٪ منهم في الاتحاد السوفياتي والبلاد الشيوعية الاخرى التي تدل الدلائل على أن إمكانات هجرتهم غير قوية او غير واسعة .

وفي هذا دلائل على أن الحركة الصهيونية في حالة جمود او تراجع من ناحية هدفها القومي والديني والتاريخي . وقد بدأ الانحسار فيها بما هو معروف من

تضاؤل عدد المهاجرين إلى الارض المحتلة سنة بعد سنة ومن نزوح الآلاف عنها سنة بعد سنة كذلك . ولو تيسرت أسباب النزوح سياسياً واقتصادياً - لأن السلطات تتشدد كثيراً بالاذن به ولأن الراغبين فيه لا يحصلون على ما يساعدهم عليه - لتضاعف عدد النازحين أضعافاً كثيرة . وإمكانات الارض المحتلة أضعف من أن تحتل عدداً أكبر من الموجود حتى لو صار ذلك ممكناً . وما يبشره اليهودية من الإمكانات التي سوف تتيحها عمليات ارواء النقب دعاية فارغة من مضمون صحيح . فالماء الذي يسرقونه من بحيرة طبريا والذي تبذل الحكومات العربية جهدها لقطعه عنهم وليس من المستبعد ان ينجحوا فيه لا يروي اكثر من (٧٠٠٠٠٠) دونم ولو تضاعف بتحلية ماء البحر لكان كل الامر أن تضاعف هذه المساحة . وهذا أقصى ما يمكن . ومليون ونصف دونم لا تتسع لأكثر من خمسين الف أسرة إذ وزع على كل أسرة (٣٠) دونماً أي سبعة فدادين . وهذه الاسر لن يزيد عدد أفرادها عن (٢٠٠٠٠٠) . يضاف إلى هذا الضائقة الشديدة التي تخنق إسرائيل حكومياً وشعباً بسبب ضعف مواردها الذاتية وضعف فرص العمل فيها واضطرار الحكومة إلى إنفاق نصف إيراداتها على الأقل - للتسلح والدفاع وقبضة المقاطعة العربية التي تشتد على خناقها يوماً بعد يوم والتي استطاعت أن تجبر اكثر من تسعة آلاف شركة اجنبية على نفق يدها منها حتى لا ينسد في وجهها باب السوق العربية الواسع واشتداد ملاحقة الحكومات العربية لها في افريقية التي حاولت أن تجعلها مجالاً حيوياً لها مما يبشر بهذا الباب عليها او تضيقه كثيراً . وقد اخذ يخف تدفق الاموال التي استطاعت بها أن تقوم بما قامت به من منشآت واعمال وجلب مهاجرين وتأمين إسكانهم ومعيشتهم .

وهناك إلى هذا كله التمييز العنصري الذي يعاني منه اليهود انفسهم من حيث ان ما يسمى باليهود الشرقيين الذي هم نصف اليهود أو أكثر في مركز أدنى في كل شيء عن المركز الذي يشغله ما يسمى باليهود الغربيين . وهذا ينذر بالانفجار في كل وقت على ما تدل عليه البوادر .

وإذا كانت الحركة الصهيونية مع ذلك مستمرة على نشاطها فإن مرد ذلك إلى أنه ما يزال يوجد بضع مئات آلاف من اليهود يمكن أن يغفروا بالهجرة إلى الأرض المحتلة من جهة وإلى كون هذه الحركة قد غدت منظمة موظفين تضم عشرات الألوف من المتفرغين الذين يرتزقون منها في فلسطين وسائر أنحاء العالم ثم إلى الدول الاستعمارية التي رأت وما تزال ترى في هذه الحركة وسيلة إلى تحقيق مآربها في الشرق العربي فتعقد عليها المساعدات وتؤيدها بمختلف الوسائل والمواقف . وحياة الدولة اليهودية منوطة بالدرجة الأولى بهذه المساعدات والتأييدات . ولن يدوم هذا إلى الأبد . وحينما ينقطع تحف هذه الحياة . وسيحدث ذلك حتماً في ما نعتقد عاجلاً أو آجلاً .

ولقد انجرح الشعب العربي الذي يكاد عدده يبلغ مائة مليون أشد جرح وأنكاه من سيرتهم في فلسطين . وتنبه لنواياهم المريبة تجاه جميع بلاده . وهم في ناحية صغيرة من أرضه كعوامه تافهة في بحر عظيم . وهو مصمم على أن لا أمن ولا نجاة له إلا باقتلاع جراثيمهم . وهم يقوون ويزدادون وعياً وتنبهاً وتصميماً يوماً بعد يوم . ولن يؤثر في مجرى هذا السيل ما يقف أو يوضع في طريقه من حجارة وموانع .

واليهود في فلسطين بعد ليسوا إلا عوامة في بحر لحي عظيم يحرق بهم العرب من كل ناحية وقد زاد عددهم على مائة مليون . ومن ورائهم المسلمون وقد بلغ عددهم الستمائة مليون بل ومعهم جمهور عظيم من النصارى إن لم نقل الجمهور الأعظم . ولن يكون لهم مفر من القضاء المحتوم الذي ينهدم به ما بنوه ويتفرقوا به أشتاتاً أيدي سباً كما كان أمرهم من قبل .

ولسوف يأتي يوم تصبح فيه الدولة اليهودية الدعية عالة على الدول التي ساعدت اليهود على الهجرة ثم على إقامة دولتهم على الأرض المغتصبة من الوطن العربي والتي شرد أهلها عنها دون أن يكون لهذه الدول الفائدة التي املوها من وراء ذلك . ولسوف يثير هذا التبرم في هذه الدول التي ترى مصالحها تتعرض في بلاد العرب العظيمة الساحة والامكانيات والعدد بسببها . ولسوف يؤدي هذا إلى تركها لقدرها وحينئذ تقوم قيامتها وتنتهي المسرحية .

وإذ نقول كل هذا لا نعني أن ذلك يمكن أن يتم بسهولة وسرعة من تلقاء

نفسه ولا نغني أننا نتجاهل ما للصهيونية من قوة وتأثير ونفوذ . وعلى العرب شعبيهم وحكوماتهم عبء واجب عظيم لتحقيقه . بأعداد ما يستطيعون من قوة وبذل ما يقدرون عليه من جهود . ونضال عنيد في مختلف الميادين بكل إيمان وتصميم وتضامن واعتبار أن القضية هي قضية وجود عربي عام لا أمان ولا ضمان له إلا باجتثاث الجرثومة الحبيثة من أرضهم المقدسة . فاذا وعوا واجبههم وقاموا به حققوا الأمل المنشود . وانهم لفاعلون إن شاء الله . ولنا في قول الله عز وجل في موقف مماثل أعظم الأمل والايان :

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار » .

٢ سورة الحشر

وهناك حديث رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة فيه إخبار نبوي عن قتال لا بد منه سوف يقع يوماً ما بين المسلمين واليهود وفيه بشرى بانتصار المسلمين فيه انتصاراً مبنياً حتى ان الاحجار والاشجار لتساعدهم فيه . وهذا نصه (قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يخزي اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله) (١) .

ولقد أخذت تبدو بوادر البشير والنذير النبوي . فهتاف الجهاد في سبيل تطهير الارض المقدسة من رجس اليهود واقتلاع جرثومتهم يعلو ويشد يوماً بعد يوم في بلاد العرب حتى يكاد ان يصبح هديراً . وطلائع الفدائيين أخذت تتقدم بقوة وإقدام وتوقد نار الحرب . والحكومات العربية تسير قدماً في الاستعداد لحماية حدودها وحماية حركة التحرير التي بدأها الفدائيون وتقويتها . وآلاف الفدائيين الفلسطينيين يتدربون وينظمون ويهيئون للاندماج في هذه الحركة . ويثير كل هذا في المنطقة توتراً شديداً متبادلاً يتنهاه به الجو لاقتحام الميدان وبدء المعركة

(١) التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٥ ص ٣٠٤ و٣٠٥

الجادة إن شاء الله . وسيكون النصر للعرب لأنهم المبنى عليهم . وقد وعد الله المبنى عليه بالنصر في قوله الكريم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) و (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله) وصدق الله العظيم (١) .

ثالثاً : وقد يقول قائل بعد هذا إن موضوع الكتاب وصلته باليهود اليوم تبدو ان ضعيفة أو متقطعة ما دام معقوداً على تاريخ بني إسرائيل وما دام يهود اليوم ليسوا بني إسرائيل . والرد على هذا القول وارد في مطاوي هذه النبذة فيهود اليوم متدينون بدين بني إسرائيل . والأسفار المتخلفة عن بني إسرائيل هي أسفارهم التي يتلون صباح مساء ويتخذونها ذبراً لهم . وقد طبعتهم بطابع بني إسرائيل عقيدة وخلقا وعقلا وجبلة وفها وهدفاً وسيرة فحذوا وما يزالون يحذون حذوهم في كل أمر حذو القذة بالقذة فيما بينهم وبالنسبة لعلاقاتهم بغيرهم فصاروا نتيجة لذلك مثلهم قبيلة شاذاً مغلقاً على نفسه عدواً لغيره متربصاً به كائناً له ما كراً به هداماً له . يرى نفسه أرفع منه . ويستحل لنفسه كل ما لهذا الغير وما في يده . ويهدف إلى تسخيره لأغراضه وأهدافه . ويعتبر نفسه وارثاً لبني إسرائيل في كل شيء . وصورة طبق الأصل عنهم ويقول ما حكاة القرآن عن بني إسرائيل (ليس علينا في الأميين سبيل) و (ولا تركنوا إلى الذين تبغ دينكم) مما هو مائل للعيان الآن ومسجل في صفحات تاريخ القرون الوسطى

(١) لقد اقترحنا في كتابنا مشاكل العالم العربي سنة ١٩٥١ تسليح وتجهيز وتنظيم وتحويل آلاف من الفلسطينيين الذين يتحرقون اشد التحرق لأخذ ثأرهم واسترداد وطنهم ليقوموا بحرب عصابات على أن تكون الحكومات العربية من ورائهم أولاً تقدم بالمال والسلاح وتبنيهم أهميتهم وقادرة ثانياً على حماية حدودها . ورأينا في هذا الاقتراح الوسيلة المثلى لتحريك قضية فلسطين وتحريرها في النهاية من رجس اليهود . وما يثلج الصدر ان الحكومات العربية اخذت ترى هذا كما رأينا الوسيلة المثلى لذلك وتبني اسبابه لأن الأوضاع الدولية لا تسمح لها بشن حرب هجومية على اليهود حتى لو قدرت عليها في حين أن الفلسطينيين هم اصحاب الحق المشروع والمعترف به في وطنهم وليسوا مقيدن بتلك الأوضاع . وهذا ما لاحظناه حين اقترحنا ذلك . والله المسئول ان يمد الحكومات المحلصة الصادقة بقوة حتى تحققه على اوسع نطاق .

والأخيرة والقرن المعاصر في كل عمل وأسلوب وسلوك لهم فيما بينهم وبالنسبة لغيرهم وفي كل بقعة من بقاع الأرض . وفيما يزعمونه من مزاعم بالنسبة لفلسطين وبلاد العرب وفيما يبيتون لها من نوايا رهيبة وفيما اقترفوه وما يزالون يقترفونه من جرائم فظيعة بحيث صار الكتاب وموضوعه نتيجة لذلك أشد ما يكون اتصالاً بهم .

رابعاً : يحاول اليهود مخادعة المسلمين ببعض آيات قرآنية فيها تنويه ببني إسرائيل . وإيدان برعاية الله لهم وتفضيلهم على العالمين مثل هذه الآيات :
١ - يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين .

سورة البقرة ٤٧

٢ - ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون .

السجدة ٢٣ و ٢٤

٣ - ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولي الألباب .

غافر ٥٣ و ٥٤

٦ - ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين .

الدخان ٣٠ - ٣٣

٧ - ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

الجاثية ١٦ و ١٧

وقبل كل شيء نقول ان المفسرين متفقون على أن ما ورد في هذه الآيات من تنويه وتفضل هو موقوف بالظرف الذي منحوهما فيه وليس على التأييد . ولقد

حكمت آيات كثيرة جداً بغيرهم وعدوانهم وعصيانهم وتكذيبهم للأنبياء وقتلهم إياهم وتحريف كتبهم وارتكاسهم في الكفر والشرك وعبادة العجل وأكلهم السحت وعدم تناهيهم عن المنكر ومخالفتهم لشرائعهم واحتياهم عليها ومكابرتهم في الحق . وصدهم عن سبيل الله . وسعيهم في الأرض فساداً . وخياناتهم لعهودهم واماناتهم مع الله والناس واستحلالهم أموال الغير ودمائهم وتآمرهم على الإسلام والمسلمين مع الأعداء . وأن الله عاقبهم فضرب عليهم الشتات والذلة والمسكنة وصب عليهم غضبه ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير وآلى على نفسه أن يبعث الله عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . وأذن لرسوله أن ينكل بهم ويظهر الأرض المقدسة من رجسهم بحيث يكون في هذه الآيات الكثيرة إيذان رباني بنسخ تلك الآيات والفناء تلك الميزات بسبب انحرافاتهم الدينية والأخلاقية .

ومن الآيات ما يتضمن إيقاع الله عليهم العقاب بسبب ذلك قبل البعثة ومنها ما يتضمن إيقاعه العقاب عليهم بعد البعثة . والآيات المذكورة مشبوبة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأعراف والحشر والصف والجمعة . وقد أوردناها في فصول هذا القسم المختلفة ^(١) .

خامساً : يحاول اليهود تخادعة المسلمين وخاصة من غير العرب بما جاء في القرآن عن صلة بني إسرائيل بأرض فلسطين ليقولوا لهم إن القرآن يؤيد كون الله تعالى قد كتبها لهم إرثاً وموطناً أبدياً . وإن مناوأة العرب والمسلمين لليهود في ذلك مخالفة للقرآن وإرادة الله عز وجل . ويوردون بسبيل ذلك الآيات القرآنية التالية :

(١) آيات سورة البقرة ٥٩ و ٦١ و ٦٥ و ٧٤ و ٧٩ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ٩٣ و ١٠٠ و آل عمران ٦٩ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٨ و ٧٩ و ٩٩ و ١١١ و ١١٢ و ١٨١ . والنساء ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٥٦ و المائدة ١٢ و ١٣ و ٤١ و ٤٢ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ و ٨٢ والأعراف ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ والحشر ٤ والصف ٥ والجمعة ٥ و ٦ و ٧ و ٨ .

١ - وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .

٢٠ - ٢١ المائدة

٢ - وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون .

١٣٧ الاعراف

٣ - فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقنا ومن معه جميعاً وقلنا من بعدد لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لطيفاً .

١٠٤ الإسراء

٤ - فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل .

٥٧ - ٥٩ الشعراء

وبقطع النظر عن كون يهود اليوم هم غير بني إسرائيل القدماء وإن ما جاء في الآيات لا يعينهم لأنها لا تشمل من دان باليهودية من غير بني إسرائيل وهم معظم أو كل يهود اليوم فإن الحق في هذا الأمر الذي عليه جمهور المفسرين هو أن عبارة الآيات ليست على التأبيد . وإنما هي خاصة بالزمن الذي وعدوا فيه بذلك ونتيجة لما كان من استجابة بني إسرائيل لكلام الله وصبرهم على ما جاء صريحاً في آية الاعراف (١٣٧) ولقد جاء بعد آيتي المائدة آيات تحكي موقف اللجاج والتمرد الذي وقفوه من أمر الله ورسوله وإيجاب التيهان عليهم في التيه وعدم دخول تلك الأرض بسبب فسقهم كما نرى فيها (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون الله عليها ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين

سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ٢٧ - ٢٩) وهكذا يكون الأمر من وجهة النظر القرآنية قد وقف عند الوعد وانتهى مدى حكاية قول موسى ان الله كتب لهم الارض المقدسة . ويلحظ ان آية سورة الأعراف قد تضمنت تعليلاً لما كان من حكمة الله بوعدهم وإعلانهم انه اورثهم مشارق الارض ومغاربها التي بارك فيها وهو صبرهم واستقامتهم . وقد انحرفوا انحرافات خطيرة اخلاقية ودينية ونقضوا بذلك التعليل الرباني فلم يعد لهم حق بالتمسك بالآية القرآنية والاحتجاج بها فضلاً عن الآيات الكثيرة التي تضمنت لعنة الله عليهم وغضبه وايدائه بتشتيتهم في الارض وتسليط من يسومهم سوء العذاب عليهم الى يوم القيامة وكتابته الذلة والمسكنة عليهم لنقضهم موثيق الله وكفرهم بآياته كما ترى في الآيات التالية :

١ - وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

سورة البقرة ٦١

٢ - أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

سورة البقرة ٨٥-٨٦

٣ - كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

سورة آل عمران ٨٦-٨٧

٤ - ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

سورة آل عمران ١١٢

٥ - ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعذابكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قلوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً .

سورة النساء ٤٤ - ٤٦

٦ - « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » .

سورة النساء ٥١ - ٥٢

٧ - ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم إئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم ...

المائدة ١٢

٨ - وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداد مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين .

سورة المائدة ٦٤

٩ - وإذ تأذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم . وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على

الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ...

سورة الأعراف ١٦٧-١٦٩

١٠ - وقضينا على بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليكم فأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فعليها فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتيبراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً .

سورة الإسراء ٤ - ٨

وبناء على هذه النصوص القرآنية لم يبق لتلك الدعوى معنى ووجود من وجهة النظر القرآنية والإسلامية .

ومن الجدير بالذكر أن الإصحاح (٢٦) من سفر الأحبار قد تضمن إنذاراً رهيباً بالنكبات والضربات والشتات وتسلط الأقوياء عليهم وإذلالهم وتدميرهم إذا هم انحرفوا عن وصايا الله وشرائعه . وقد أوردنا نصه في القسم الأول من الكتاب وقد سجلت أسفارهم العديدة الأخرى مثل أسفار القضاة وصموئيل والملوك وأخبار الأيام وحزقييل ودانيال وأرميا انحرافاتهم عن وصايا الله وشرائعه انحرافات خطيرة مما أوردنا نصوصه في القسم الأول من الكتاب كذلك فقدقوا من وجهة نظر أسفارهم ما آذنتهم الله به من تفضيل وإرث أيضاً .

سادساً : يكرر رجال اليهود الرسميون الذين يسمون أنفسهم حكومة إسرائيل وأنصارهم معهم هتافهم في كل مناسبة برغبتهم في مصالحة العرب . وفي إحدى سورة الأنفال آية فيها أمر للنبي ﷺ بمقابلة الذي يحنج إلى السلم من الأعداء بالمثل وهي هذه :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) .

٦١

فتحذيراً للعرب والمسلمين من الانخداع بهتافهم نقول إن الأمر القرآني ينطوي حقاً على مبدأ جليل من المبادئ الإسلامية الخالدة بكون الجهاد الإسلامي هو دفاع ومقابلة عدوان لكفالة سلامة المسلمين وديارهم وحرية الدعوة الإسلامية .

ويكون كل موقف مسالم أو سلمي من عدو يؤدي إلى تحقيق هذا الغرض من شأنه أن يغني عن الحرب . غير أن هذا المبدأ القرآني إنما ينطبق على فريق له دار ودولة خاصة به منذ الأصل وظهر منه موقف عدائي ضد الإسلام والمسلمين . ولا ينطبق على اليهود في فلسطين لأنهم معتدون في الأصل على دار المسلمين والعرب ومغتصبون لما احتلوه من فلسطين اغتصاباً باغياً بمساعدة طواغيت الاستعمار بعد أن حاربوا العرب والمسلمين فيها أشد حرب وآذوهم أشد أذى وطردهم من مدنها وقراها واستولوا على بيوتهم ومزارعهم وبساتينهم وكرومهم وثرواتهم المنقولة وغير المنقولة وقتلوا الآلاف منهم ومنهم أطفال ونساء وشيوخ عزل غير محاربين ومثلوا فيهم أفظع تثليل وهتكوا حرمة العرب والمسلمين ودنسوا مقدساتهم وأزالوا معالم الإسلام والعروبة . ولم يكن بين العرب وبينهم سابق عداة قبل تفكيرهم في غزو فلسطين وإنشاء دولة على أنقاض العرب والمسلمين فيها . بل كان العرب والمسلمون في ظل السلطان الإسلامي يمنحون من كان منهم في ظل هذا السلطان الحرية والأمان والطمأنينة في حين كانوا وظلوا معرضين للاضطهاد والمطاردة والمصادرة في كل البلاد الأخرى التي كانوا يحلون فيها . فلا ينطبق معنى الجنوح إلى السلم عليهم إذا أعلنوا أنهم يريدون الصلح والمصالحة مع العرب والمسلمين مع احتفاظهم بما اغتصبوه من دارهم وأموالهم وبالدولة التي أقاموها على أنقاضهم . ولا يجوز للمسلمين والعرب إجابتهم إلى ذلك حق لو تركوا بعض ما اغتصبوه واكتفوا بالقسم الذي قررته لهم هيئة الأمم لأنه دار المسلمين والعرب . وليس حياة الأمم أن تمنحهم جزءاً مما كان صغيراً من هذه الدار . وليس لأحد من المسلمين والعرب حق في قبول ذلك . وأي تساهل في ذلك هو خيانة لله ولرسوله وللمسلمين . وعلى المسلمين أن يحاربوا كل تساهل وكل متساهل وكل ساكت على التساهل والمتساهلين بكل قوة وعنف وبمختلف الوسائل وعليهم واجب إعداد كل قوة يستطيعونها والاستعداد بكل وسيلة لمقاتلة اليهود وتضييق الحناق والحصار عليهم بدون هوادة ولا كلل إلى أن يقوضوا دولتهم ويستردوا ما اغتصبوه من أرض فلسطين المقدسة وأموال أهلها وأملأهم ويطهروها من رجسهم لتعود إلى السلطان العربي الإسلامي كما كانت .